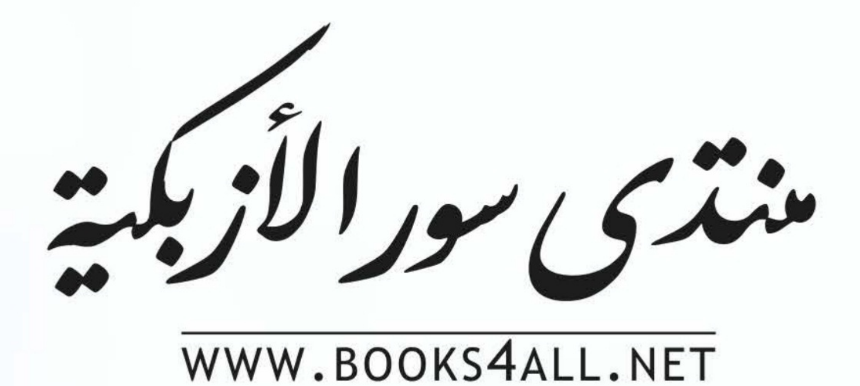
محمد عبد الحكم حسن

بستان أبى الهوى

رواية



أجيال لخدمات التسويق و النشر - القاهرة


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

محمد عبد الحكم حسن

بستان أبى الهوى

رواية

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



تسويق ونشر

مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافى

الكتاب: بستان أبى الهوى

المؤلف: محمد عبد الحكم حسن

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٤٩٠٧

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-6215-16-5

حسن، محمد عبد الحكم.
بستان أبى الهوى: رواية/ محمد عبد الحكم حسن.
ط١. - القاهرة: مجموعة أجيال لخدمات التسويق
والنشر والإنتاج الثقافى، ٢٠٠٧.
١٥٦ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٥-١٦-٦٢١٥-٩٧٧
١- القصص العربية.
أ- العنوان ٨١٣

بستان أبى الهوى

المدير العام خالد عبد الصمد خفاجي

مدير النشر عــادل متــولي

الجمع والصف الإلكتروني

القسم الفني

إشراف وتنفيذ إيمان خفاجي

تصميم الغلاف: الفنان عطية الزهيري

طباعة مطبعة صحوة



تسويق ونشر

مجموعة أجيال لخدمات التسويق والنشر والإنتاج الثقافي

الإدارة والمكتبة: ٤٤٩ ش السودان - المهندسين

الدور الأول- شقة ٤

أمام مجمع محاكم شمال الجيزة.

التسويق: ٠١٢٢٣٧٠٥٠٢٤ - ٠١٠١٨٨٩٣٦٣

Email: aagyal@yahoo.com

aagyal@hotmail.com

الإهداء

إلى من علمنى نسج الحكايا من خيوط الهم

إلى الدكتور جمال التلاوى

بعضٌ من عطائك

إن كنت مسلم أو نصرانى..
الولد ده أمانة ف رقبتك ليوم الدين

(أبو الهوى)

هى (المشاوير) إذن، وفيض الحكايا فى نسيم الصيف، خوض الحمير فى لجج الظلام، وآثار الأقدام على تراب الجسور، ومروق الخفافيش، وانطلاق المعبأ بالمواويل وشوق لحضن بوسع المدى، ودفء صدر مكتنز، وذكر بط عام فى بحر المرق، وحصير نفضته اليدان المتلهفتان فى طراوة العصر فنُرد بحجم الكون ولمعت أعواد الخوص.

رشرشت البيت فنام التراب اللدن وترطب المكان بعبق الطين، وتململ الولد فى بطنها ودفس برفساته جنبها اللين، ودغدغ الروح فكتمت ضحكتها فى صمت الحجرة، وأقسمتْ أن تحكى له هذا المساء عن شقاوة (المنعوص)، وكانت ستلقى بكبدة ذكر البط فى فمها لولا أنها تذكرت أن القادم من وراء الجسور والبلاد يحب أن يقزقزها معها.

حين تحسس دفساته فى المرة الماضية صرخ تحت سطح البوص: (مدد يا بدوى)، وهال ملابسه المعلقة ورقص حتى استلقى متعبا.

يطرق الآن على رقبة الحمار بعصا رفيعة كنقرشات طبلة يتمايل لها النخيل وتتجلى المواويل وتتوالى ضربا ته بأرجل قوية يحث الحمار على السير، يتخطى البيوت والأشجار ليحط هناك.

مشاوير يعرفها الحمار والليل الستار والبوم القابع فى كوات البيوت المهجورة يطل بعيون العجائز، وأعشاب الجسور وكلاب السكك، وعيون أولاد الليل المتربصين بين أعواد الذرة، ودقات الطبول البعيدة حين تدشدش صمت الليل، وهرولة عيال الجن بأقدام مفلطحة بين المقابر.



بركان من الأسئلة يهدر فى جسدها الملفوف بالألحفة وبذور

القطن وبقع الزيت وبقايا عطر رخيص، فتعض على فكين خاليين من الضروس وتشد الشعر الأشيب، تبصق من خلال نفس لاهث على كل الرجال وخيبتهم على الكبر.

فيستحيل عراكها الصامت تحت الألحفة همهمات ورفسات وتقلبات قلقة وغيظ يتنامى، وهى تسمع الكراكيب تُسحب من تحت السرير وتُدلق على الأرض، فتتناثر حبات مسبحة قديمة وفرد خلاخيل بلاستيك وكور صوف وأحجبة وقصاقيص ملونة.

تستشعر انسلاخ الجسد من جوارها فتمتد العتمة العبقة بعرق الرجل إلى صحراء تغط فى ليل مظلم، صقيع وغيظ يأكلان فى لحمها المتهدل ويستبيحان الأرض البور والجسد العقيم. تكبش بيديها وأسنانها على ظل رجل يهتز على الجدار، لكنه يختفى بعد انغلاق الباب واتساع الصمت ودنو الليل بأصابع تنبش فى صرة الذكريات.

زمن بارتفاع الأشجار فى البستان الممتد وهى تملك زمام هذا الرجل، تطويه تحت جناحها، تتحدى به الدنيا وجفاء الأهل وليل الشتاء الطويل، تحمحم عليه بعينين يقظتين وذهن صاحى، ها هى تراه بأسراره وحكاياته وقوته وحنوه، ينفلت ويتبعثر كحبات مسبحة، يختبئ بين الشقوق وظلام الليل والحكايات الملفقة ولوعة العين وتلعثم اللسان واهتزاز الشفاه حين تختلق الأكاذيب، والجسد المتعفف عن الشهوة والظهر العريض الذى يواجهها طوال الليل.

تكبس الألحفة على نفسها كتلال رمل، وبراغيث الدنيا تلسع لحمها. وألسنة بنات العم تخرج من عمق الظلام وزحمة الأسواق وهزات الأفخاذ على الموارد ولملمة الإوز والعيال من الشوارع ودخان الأفران، شامتة وغائظة، تلتف كالثعابين حول رقبتها، ومارد كجمل يبرك عليها ببطن مكتنز ويدهسها بلا هوادة، فتخرج رأسها كأنما من عمق بحر، يرتفع لهاثها وتطلق تنهيدة بحجم الخلاص وارتداد الروح وتتأمل زوجها (أبو الهوى) يبعثر الأشياء بيدين

متعجلتين، ينفض الأخيس والكراكيب ويفتشها عشرات المرات.

- داير على إيه يا راجل السعادى؟

يفاجآه السؤال والوجه الغاضب والعينان اللتان ما نامتا، تتوه منه الإجابة وتتبعثر الحيل ديراها تتمدد كجدار عال وحراس وأنياب وحراب وسنين ضائعة. ونخلة ذكر طمسها الليف وتراكم جريدها واستوطنتها الثعابين. تتلوى أمامه وتتبدى سنين عمره كحبل يجر به العيال حماره الميت وسط الصيحات والضحكات وتسلخات الشعر وتخبط الرأس المستسلم على الأرض الصلبة، وتشير الأيدى وأصحاب البيوت:

- هناك، هناك، بعيد.

فيلقونه بعيدًا على حافة البحر تلغ فيه الكلاب وتقضم فيه القراميط ويتقزز منه العابرون ويقولون "كلب وراح لكلابه".

لم تكن تسأله بتلك الصرخة والحرقة لتعرف الإجابة، فهى تعرف جيدًا مَنْ (أبو الهوى)، دائمًا ما يجد ألف إجابة ومخرج، ولكنها تسأله لتمنعه وتذكره وتحذره بأنها وإن كانت نائمة فأعين الطوابين صاحية وأيديهم وأسلحتهم وغيظهم العميق بحرقة السنين وتشعب الجريد على النخلة الذكر، وغريب استولى على بنتهم وأرضهم وعراهم من فدادين بنت عمهم التى كانت تسترهم وعيالهم، وإنها بإشارة منها يصبح بستانه زلقا وجسده ممزقًا فرقا.

كثرت مشاويره فى الأيام الأخيرة، يتهيأ كل خميس فى مثل هذا الوقت، يمتطى حماره وينط (أبو ستيتة) وراءه كالقرد، ويمضيان عبر الليل والدروب والمصارف ونباح الكلاب، يرددان المواويل والذكريات والأحجيات، تاركين القيادة للحمار الذى يعرف الطريق جيدًا. وقبلها فى العصرية تراه يجلس تحت شجرة البرتقال، و(أبو ستيتة) يشق بين أوراق الكرم المتدلى وقحوف التين

ويعود له بالموس والصابونه والمرآة، يحلق ذقنه ويتحسس نعومتها ويقلم أظافره ويخفف شاربه، فيتجلى الوجه بالسحر القديم وبريق الصبا وتدفق الدم فى صحراء الوجه المتعطش.

ليلة الجمعة، هى فى البداية كانت تظن أن هذا الاستعداد لها، فتستحم وتمشط شعرها وتسحب خطىَ كحل على عينيها وتنفض السرير العتيق وتطلق البخور وتغنى بصوت لا يخلو من الحنين (ليلة الجمعة يا أجمل من كل الليالى، يا آم الصلاة والصوم وذكرك العالى) وتتأمل عبر الضوء الشاحب وخيط الدخان جسدها المتهدل، سنين تسربت وسحبت معها خيوط الضوء فى ولد كان سيسندها ساعة الكبر وانحناء الظهر ويقتلع الحشائش الشيطانية من البستان.

لقد تبعثر العمر وانقطع الحيض وأصبحت عرضة لسخرية الحلوانين وغمزات نسائهم، عيالهم حين يتنطلون كالقردة، يتسلقون سور البستان، يلملمون فى حجورهم ما تساقط ويسقطون ما علق، تطحن أفواههم الرطب واليابس، وعندما يلمحونها يختبئون كالعفاريت، تقترب منهم، تتفحص وجوههم عن قرب، كُشطت عنها ملامح البراءة فبانوا كصغار الذئاب، لا تزال أفواههم تلوك وأيديهم تخطف وحجورهم تحتوى وتنتفخ وتطل منها الثمار الناضجة، وتنحنى الظهور بحملها وتكل الأرجل عن السير، كم مرة يقفزون فى اليوم، هى لا تدرى، مشغولة بالبيت والمواعين وهدوم الرجل والطيور، ما الذى أوقع كل هذه القوالب من جنبات السور؟!، الكلاب لا تستطيع القفز، ولكنهم هم، هؤلاء الأشقياء الصغار، نفس الملامح القاسية واتساع العيون عند الحاجة وفرحة الاقتناص، لماذا يأخذون بكل هذه القسوة، هى تتعمد أن تتركهم مرة ومرتين فى اليوم يأخذون ويحملون ويرحلون، ولكن عشرات المرات يعنى أنهم يحرضونهم، يريدونهم أن يخربوا هذا المكان، لو أخذوا الناضج لكان هينًا ولكنهم يلقون الأخضر الذى لم يستو

بعد، تنبدر تحت أقدامهم الحافية عناقيد عنب مُرة كالحنظل وجوافة يابسة لا تطحنها الأسنان وبلح أخضر.

تدنو منهم ولكنهم لا يفرون.

- هو أنتم... طيب غوروا.

- يوه يا عمه احنا برضو اللى هنورثك.

تكاد تصرخ فى وجه النهار والنخيل، تود لو تستوقف الناس والطير وتسألهم: من عبأ أفواه هؤلاء الزغاليل بتلك الرصاصات، إنهم يطلقونها صوب القلب مباشرة، يتكئون على موضع الجرح الغائر، يلوثون براءة الندى وحنو الظل وضمة الحضن، فتغيم الدنيا وتدور بها، يحتويها الخدر فتستند على أقرب شجرة، وبين أشجار تدور وطيور تحوم وجسد يهوى إلى واد سحيق، تخرج الحجور منتفخة بفيض الثمر. يدوسون ويهيلون ويعبثون، ويفرغون بأيد شقية فى بيوت الطوابين.

وعبر جدار من الخوف والدهشة وتمزق خيوط الود الواهنة وطفح الكيل بغل قديم وذكريات تتخبط فى رأس متصدع، ألف يد من الخفاء تكتم صراخها المبحوح، والكائنات استدارت ظهوراً تنحنى وتتقافز. تتسلق السور وتتنطط بين الأشجار، تراهم بنسائهم وعيالهم وجمالهم التى شاخت وحصان سعيد الطواب الذى تهدل كبغل والحاج والحاجة وسعد الطواب ومخلوف الطواب وابن زكية العرجاء وحسنيه وبنات عمومتها، كلهم يقذفون ويلملمون ويجزون ويبعثرون، وهى تدفع وتمنع وتحاول وتصرخ من حنجرة مسدودة، تستجير بظل (أبى الهوى) الذى رحل فى المساء وما عاد، تتردد نظراتها المضطربة على الحجارة المنطلقة صوب النخيل والثمار وكيزان اللوف وأحواض الورد وكرم العنب وقحوف التين، تنطلق كارتعاشة المحموم، تقتلع كل شئ كرياح خماسين تكسح الأعشاب ومراكب الورق وبيوت القش ورسومات العيال على

التراب، الأيدى تحصد كل شئ إلا النخلة الذكر الواقفة كعجوز شامتة فى مدخل البستان، تختلط الرؤى وتعاودها ذكرى الأيام البعيدة، تلك الأيام التى رفعت على ظهرها قش الهيش فى تلك البقعة الموحشة، (أبو الهوى) يجز، وهى تربط وتحمل وتحرق، والأرض الخراب تتجلى عن بنت بكر تدب فيها فأس (أبى الهوى) فتتجمل بالنخيل وتتحلى بالكرم وشجر البرتقال والجوافة والرمان وأحواض الورد.

لقد كان الناس يهرولون إذا اقتربوا من هنا، يصرخون كأن أياد تتخاطفهم وأخرى تدفعهم، عواء ذئاب وفحيح أفاعى وكائنات ليل لا يخيفها النهار تختبئ فى دهاليز الهيش وعتمته ووحشته، طلقات وصرخات، وغابة؛ الداخل فيها مفقود، ها هم يغرقون فى اندهاشهم وهم يرون رجلاً وامرأة وبستانًا وسيعا، بستان (أبى الهوى).

التنهيدة التى أطلقتها لم تكن كافية لغسيل الهم وإراحة الصدر، فما زالت النخلة الذكر تبص على رؤوس الأشجار بعينين ماكرتين وجريد متهدل، يدور الحول، تزرع وتروى وتنتظر، كل الشجر يفرش الظل والثمار وأعشاش العصافير وبهجة العناقيد ويحنو على التراب الرطب، إلا هذه النخلة الملفوفة كأمنا الغولة ملبدة بالليف والجريد ومسكونة بالأفاعى.

والقادم من بعيد لا يميز من البستان سوى هذه النخلة، وحين تختفى عنزة أو دجاجة تتجه إشارات الأصابع نحوها.

- شايف النخلة الدكر اللى هناك دى... دوّر عندها.

همّت أكثر من مرة أن تكلم (أبا الهوى) فى قطعها، ولكنها تعرفه لا يقطع شيئًا زرعه، وكيف بنخلة ذكر فإن قطعها فآل سيئ.

تستند على شجرة البرتقال وتقاوم ماردًا وهميًا وعيونًا تبص وروحًا تتردد فى الحلق وحجورًا عبرت لتفرغ وتعود.

ينطلق صوتها من بئر عميق. يستجير به:

- أبو الهوى... أبو الهوى.

ولكن الرجل الذى حلق ذقنه وحفف شاربه ونفض عباءته الجديدة أمام طيور البستان وشمس الغروب، ها هو يستعد ككل خميس، تاركًا جسدها وحيدًا بحزنه ولوعته لهسيس الجدران والصقيع والغوص فى الذكريات البعيدة. وتعاود سؤالها له وقد أزاحت الألحفة عن جسدها قليلاً فغمرتها نوبة من السعال:

- داير على إيه يا راجل؟

يعرف أن أية إجابة لا تطفئ الغضب المشتعل فى صدرها وإحساسها بأنه سرق شبابها وعزوتها وأكلها لحمًا طريًا.

تنحنح فانطلقت حشرجات صوته كطلقات متتالية، تنبئ عن اتكاء الروح على جسد قوى وماض ملئ بالشقاوة والمشاحنات ولعب عصا وسهر الليالى. كانت ضالته قد استقرت بين زجاجات فارغة وشباشب وزلع سمن وغلقان مهترئة، سحبه بلهفة المشتاق وتحسس جلده، مسحه بالماء وابتسم لبريقه الذى سرعان ما انطفأ، كان تاريخ شرائه محفورًا فى ذاكرته:

(فى أحد الأسواق رآه مع الرجل، فاصل وباع الحمار، واشتراه، يعلم أن للحمار أربعة حوافر تغوص فى التراب، وتخلف حفرًا ولكنها حفر تتشابه وحفر جميع الحمير والدواب والأقدام، هى حوافر الحمار إذن وليست رجلاه هو، حين وضع قدميه فى الفردتين طارتا به فوق شواشى النخيل ورؤوس القوم، أحس بدفء نعومة الجلد، فارتاح النفس فى صدره وتجلى السحر تحت ذيل جلباب الصوف وكأنه يجوب المدى بقاربين يلمعان أمام العيون المندهشة، وغرق (أبو الهوى) فى تأملاته، كان يريد أن يطبع روحه على الأرض وأن يحفر اسمه فوق الطرق وتراب الجسور، ليحملق العابرون فى الأرض

وخربشات العصافير وحوافر الدواب والأقدام ويصيحون:

- أبو الهوى كان ماشى من هنا.

يتأمل بصمات يطبعها حذاؤه فوق التراب، عميقة وواضحة. يستطيع الطفل المتشبث بحرام أمه أن يعد خطوات النعل المتقاربة ودائرة رقم الحذاء والكعب الغائر.

إن مواضع أقدامه ستكون مؤنسًا للماشى وحيدًا على قدميه عبر البلاد، حيث يشاهدها ويتخيل عظمة صاحبها، وربما يبدأ فى عدها، ولا يمل، بل ويتساءل فى نفسه "من أين جاءت، وإلى أين تنتهى؟"... ولولا عبط الفكرة لجازف ومشى متتبعا أثرها ليعرف فى أى البيوت دخلت.

اختفى الحمار بصاحبه الجديد، و(أبو الهوى) يغوص فى أحلامه، كان السوق يموج، فعاد محملاً بما تبقى من نقود، وملأ المنديل المحلاوى بالفول السودانى وبطيخة والنعل القديم، أخذ جانب الطريق محاذرًا روث البهائم، ينظر إلى بصماتها على التراب. كانت أعمق وأوضح من حوافر الحمير والدواب والبلغ والقباقيب ونبش العصافير والأقدام الحافية.

حين حطت رحال عينيها على قدمى الداخل لملمت نفسها واعتدلت فى فزع لتستقبل صاحب المهابة، وما إن رأت وجهه حتى صرخت: (عملتها يا هايف).

كثيرا ما لَمح لها بأنه سيبيع الحمار ويشترى حذاءً، وكانت تكتفى بلسعه بنظرة ساخرة وتعاود أعمال البيت.

إلا أنه أقسم هذا الصباح وهى بين اليقظة والمنام، ويده الخشنة تضرب على مؤخرة الحمار الطيع رافعًا صوته فى اتجاهها:

- والله لأبيعك، أنا اللى اشتريتك وأنا اللى أبيعك... حاااا.

لم تكن تلك الحية الموجودة مصدقة لقسمه، حتى تلاقت

العيون ونسج بريق الحذاء فى مستطيل الشمس الداخل من فتحة الباب. ضربت كفيها لا تدرى على صدرها أم على صدره. وعلا صراخها بين جنبات الدار وتخطى الأشجار والأسطح البعيدة، فتوقف العابرون وامتلأت بقعة الظل بالعيون الباصة والآذان المتنصتة والتى كان أكثرها إنصاتًا آذنا ابن زكية العرجاء.

- بعت الحمار يا هايف وأنا اللى عاوزه أعملك راجل.

صمت السنين نطق أمام الشامتين، وهم الدنيا طفح على الفم، فراحت تلعن حظها المايل دون نسوة الطوابين وتلعن يوم رضاتها به ذلك (السنكوح) معدم الأهل والمال.

فانسلخ ابن زكية العرجاء شارخًا الزحام واتجه إلى بيوت الطوابين.

(أبو الهوى) يضحك من قلبه وهو يتذكر ذلك اليوم، ويحشر قدميه فى الحذاء وينهض بخفة الشاب وشوق المحب، يصفع الباب خلفه ويخترق الفضاء الوسيع.

بكاؤها لن يرد غائبًا أو يجمع شملاً تمزق بسبب عنادها ورفضها أبناء عمومتها، وإسلامها النفس والصحة والمال لذلك الغريب.

تنهض بجسد يتفجر غيظًا وقد أصرت أن هذه الليلة ستكون نهايته.

وراءها البستان والأشجار كالأشباح، وأمامها الطريق طويل إلى بيت الطوابين تستطيع من خلال تشنجاتها المكتومة أن تستعيد الذكريات البعيدة:

السوق يقزقز حواف الغيطان. آرجل متزاحمة تدوس الزرع بلاهوادة، تعلو صرخات الفلاحين، عصيهم الصفصاف تلسع الظهور والأرجل، تنكمش كتلة الأجساد وترتد كتلال رمل، تزيحها الأيدى بثقل وعضعضة وخربشات أظافر وتمزيق ثياب وحسرة على خضرة تستحيل هشيمًا تحت آرجل لا ترحم، تموت الصرخات والشتائم واللعنات بين سوق يموج بالناس وباعة الأحذية الرخيصة وغوايش البلاستيك وعقود الحلوى الحمراء وطشوت أحشاء البهائم وعصى الخيزران وحبال الليف وضربات أكف التجار المدربة على مؤخرات البهائم.

بيع وشراء وفصال وهدير، وبقعة بحجم حصير الهيش فارغة كالصمت، تتماوج على حافتها الأجساد وتستند على جدار وهمى وتتشبث الأيدى بالجلابيب خشية آن تدوس قدم على تلك البقعة المستوية التراب، تحاذر الأرجل آن تطأها، وترمقها العيون بحزن عميق وتهشيم عظام وتأوهات وعصا ترتفع فوق شواشى النخيل وتحط على الجسد المستسلم كقدر لا مفر منه، بقعة خالية وجدر شفافة تتسند عليها الأيدى المحاذرة وتبتعد. سيلجها الآن هذا القادم بحماره وجوال البطاطا وعصا غليظة، يهز أكتافًا عريضة ويتأمل السوق فى غطرسة ويحتضن جوال البطاطا كطفل ويضعه على مهل فى البقعة الخالية وسط دهشة الرجال وغمزات النسوة الماجنة.

حين يحط فى هذا المكان تلاحقه العيون بخوف وتتحسس الأيدى الرؤوس، لا يعرف أحد كيف أتى ومن أى البلاد جاء، فى آخر النهار ينفض جواله الفارغ ويدب يده متحسسًا كيس نقوده ويمتطى بخفة حماره الكبير ويرحل مع غروب الشمس وعودة الطيور وتلاحم الأشجار وغربلة عيون العيال لتراب السوق وهم يلملمون الترتر المتساقط من الطرح، ونهنهات الفلاحين على زرعهم

المدهوس، ويمضى. لا أحد يعرف أين سيذهب أو يبيت.

***

الكل يتذكر يوم أن جاء هذا الغريب إلى السوق، دار بحماره بين أهل المكان وفرش البضاعة، يبحث عن بقعة بحجم حجر الأم يضع فيها بضاعته. يتلفت وهو الغريب عن المكان والوجوه وباثعى السوق، يعاين البقع الفارغة، كثيرة ومتفرقة كمواضع السيجة.

- شوف مكان غير هنا يابو العم.

جواب ينتقل به من مكان إلى مكان، ومن بقعة إلى بقعة، والحمار يلهث تحت الحمل الثقيل، الصبر ينفد والوجه يحمر، وسوق يكاد ينتهى والجوال لم ينزل من على ظهر الحمار، الألسنة تتابعه بالسخرية والأصابع بإشارات خبيثة، يدور ويطوف ويقف ويمضى، لحظات وسيسقط الحمار منهكًا وسط ضحكات أهل المكان، فهم يتأملونه كعصفور يتهاوى من أعالى الأشجار، يدور بجناحين مكسورين أمام قطة متربصة، التساؤلات تهدر كضجيج السوق فى رأسه، أيهرب من مصير إلى مصير؟ أأنها نهاية مؤلمة؟ يسقط فى السوق تدوسه الأقدام ويقضم العيال أصابع البطاطا المتناثرة، ويتمزق جسده تحت العصى، يدورون بجثته متعفنة، لايجدون من يتسلمها.

لقد تنحنح فى بادئ الأمر فامتلأ السوق بالنحنحات، وصرخ فامتلأ السوق بالصرخات، ورفع عصاه فاستحال السوق عصيًا ترتفع وأفواهًا تشتم وأيدى تدفع وأصابعًا تشير وعيونًا تحدد. الغريب هنا يسقطون عنه العمامة فيعرفه أهل المكان وتتجه العصى إلى الرأس العارى، هو يعرف ذلك العرف جيدًا، اقتربت منه العصى فتحسس عمامته وحبك أطرافها على جبين مقضب، وصرخ الغريب بامتداد الروح، وفرد صدره كفارس آت من عمق الزمن

وعبق الأحجيات وثنايا الصخور وتوق الفاتح للأرض الجديدة.

حين تدلت أكمامه كاشفة عن ذراعه العفية، تقشر المحيطون به وغرقوا فى اندهاشهم، سرعان ما شاهد السوق ذراعه القوية وعينيه الحمراوين ويده التى راحت تنزل على كل شئ، قوية بحجم انفجار الصمت، والبعد، والقسوة، وألم انغراس النصل ببطء فى العنق، ورنات كرابيج الهجانة على الظهور المنحنية، والحرق، والغرق، وصرخة الفلاح حين يجد زريبته خالية من حياته، والرجل حين يكتشف خيانة صديقه، والأم حين تجر بيد ابنها مكشوفة اللحم، سوق وناس وأيدى تعافر، كتلة لحم وعشرات رؤوس، يتراجعون مبتعدين، الأيدى تغطى الرؤوس والعصا تنزل بحجم الغضب.

يستحيل الهدوء صمتًا والتزاحم فرقا، ومكان بوسع المدى ونصرة صاحب الحق وبحبوحة شمس الضحى وحضن دافئ يضم الصغير حين ترتفع عصا الأب وتظهر أنياب أمنا الغولة، وكلمة حنونة ترطب ساعة الغضب، ورحرحة الجسد المتعب تحت ظلال الكافور، والهلالى حين يجد أرضًا خصبة.

فاستقام كالنخيل ومسح ببصره الرؤوس المنحنية والعمائم المتساقطة والعيون الوجلة وصاح:

- أنا اسمى (أبو الهوى)، من هنا ورايح المكان ده لى ولكل غريب.

وجلجل صوته عبر امتداد السوق والزروع والبلاد البعيدة وأراح على مهل جسده المعروق، وفتح جواله وفرغ أصابع البطاطا الحمراء، جرنًا كبيرا، سرعان ما تخاطفته أيدى الضعفاء وضاعفوا الثمن وداسو بقصد على عمائم وأجساد تترنح وتأوهات وعصى وأجران غلال مبعثرة.



من أين يجئ إذن:

أمن هديل الحمائم. ورحيل النهار منحنيًا كعجوز يحمل بقجة الشفق على ظهره المتعب. وعيون أبراج حمائم تنطفئ أنوارها، وظلام يلعق رؤوس اليمام المستسلم كالمحار. أم آنه الليل ونبش الذكريات بآلاف المخالب فى عمق الروح، وعودة طيور المساء إلى دفء الأيائك، عفار البهائم ونار الحطب والتفاف الأجساد حول المواقد، رائحة الخبز المحروق، حصر الهيش، والتقاء الذكريات والمواويل والأحجيات. (وشقلبة) القطط فى المواعين الفارغة، وأسنان تطحن الخبز والضحكات وتكسر الصمت الراقد كالوعل على سطوح البيوت متدثرًا بعباءة الليل، وطرطشات الماء فى طشوت النحاس. وشد خطوط الكحل على غليظ الحواجب، ورشرشات المواويل فى ليالى الصيف.

بأى سلاح ستواجه ذلك الليل الذى ترك البلاد وحط على بابها، ثقيلاً كالهم، مخيفًا كخفاش، يبص بعيون ساهرة من فتحات الأبواب والجدران والأشياء المعلقة، يلتف كالأخطبوط على جسد فرد يئن ولسعات برد وطقطقات عظام ولحم بكر يتفسخ كمدا، يتفجر فجرًا فى عمق ظلام الأغطية وفراغ الوسادة والهسيس. وصور من رحلوا محبوسة فى براويز تبص بعيون لا تطرف وأرائك تعرت من الدفء، وعصا عوجاء معلقة على الحائط كعلامة استفهام، ودولاب حين تفتح دلفه يبخ الذكريات والنفتالين والعطر الرخيص، وشراشيب حرام الأم الأسود تتحشر بين ثنايا الخشب، ما زال مكان الرأس متهدلاً فى وسط الحرام، متسعة ثقوبه، دافئا، تتحسسه، تضمه إلى صدرها ووحدتها وتشنجاتها المكتومة، ومصباح تتراقص ذبالته المحتضرة، ينشر ضوءًا واهنًا على الحاجيات الصامتة فتتسع بقعة الليل ولوعة المشاعر، وبقايا حكمة كان يعبئها بها الأب كل مساء، وستر الآيات تخرج حنونة

من فمها لتحمى المكان من آلاف الحراب المنتصبة وعيون تبص من عمق الظلام، وأرجل تتسلق الجدران كى تهجم على بنت وحدانية، تتلفت بعينين زائغتين، باب الجنون موارب، وستر الحكمة ما زال يدفعه بعنف، فتتخبط الأفكار والمخاوف وغزغزات البرد وصرخات طيور الليل، وبصات العيون من البراويز. وهزهزات الباب تحت أيدى خفية.

ولكنه آت مع مروق النسيم وتطوحات العصى فى ساحة الرقص، وأنات الرباب وخشخشات الودع ودقيق الفرح والترتر وأغنيات البنات وهن يقرصن الأرجل غارقات فى الضحك والتمنى والألم اللذيذ.

بينه والبيت حاجز من عيون الصقور وبنادق وألسنة وطلبات تكسر الظهر وكرابيج تطرقع وأيادى توصد الأبواب فى عنف، هى تمنى نفسها، ربما يكون بالخارج فى مكان ما... قوى آم... لا لا... قوى وجميل، سيبدد صمت الليل بالمواويل وحكايا لا تنقطع، يسند الباب ساعة عواء الذئاب، يهفهف مع هبوب الريح وتطوحات النخيل وفيض الثمر ورائحة الطلع، قادرة أن تخرج الآن إلى ذلك الليل المتربص وراء الباب، تفرس مخالبها الرقيقة فى ظلامه الأجوف، تعبره كدخان يتكاثف، تواجهه بآلاف الأسئلة، قادرة على الحكى حتى الصباح، تحت صفصافة تستحم فى ضوء القمر، كان الأب يحملها إليها، ويبدر الحكايا أمام طيور الليل، يشعل المدى بهجة، يفجر ضحكاتها فى صمت الخلاء وهو يحملها على ظهره، ينحنى كجمل ويحنو بها على ندى الزرع، الألم يدغدغ ظهره، فيضحك كطفل ويكح، وهى تتأمل قمرًا يتراقص على صفحة الماء وليلاً شفافًا كالنسيم رقيقًا كأغنيات الحصاد.

فى الليلة الأخيرة رمقها بعينى مرتحل وضمها إلى صدر ينهج، سلمها عصاه العوجاء وسندات بيع وشراء ومشاركة على بهائم

وجمال، كان يريد أن يحكى لها عن كل شئ من خلال نفس لاهث، حدثها عن شوقه لأمها، زارته الليلة، واقتربت فاتحة ذراعيها، كان يحس دفء أنفاسها عطرة، عبقة كالبخور، واستدارت على بساط السندس ونادت عليه، وكان يمضى حثيثا، فرحًا كطفل، يتخطى همه والسنين، ويقبل إليها بشوق قديم، ليبكى على صدرها ويحدثها عن إخوته الذين يريدون أن ينهبوه حيا، نادته باسم يحبه ودنت. كان الضوء يحبو على مفارش الكون، وشجر الكافور يفرش الظلال الرطبة، وساقية تصب الماء على زرع يتراقص، ترشرش وجهه الضاحك، كان سيلمس يدها وأحس برعشة تحتويه، وعاودته الكحة اليابسة فراح يعتدل فى وجه الضوء الشاحب وصورتها الباسمة فى البرواز القديم، استحالت الأوراق أمامها طلاسم، هى تستطيع أن تسنده على كتفها ويمضيان خارج البيت، حيث شجرة الصفصاف ورشرشات الندى وفيض الحكايا، تتمنى وهى تزحزح جسده الذى همد صامتا كالليل مبتسما كالقمر على صفحة الماء.

الآن... تتقدم صوب الباب بحذر، حيث تتساند الأجساد المتنصتة، والعيون الباصة، وعتمة كخفاش وقمر خجول خلف غيمات بعاد وألف سؤال ينتظرها خارج هذه الحجرة، حيث أبناء عمومتها يعودون آخر الليل بعدما هالوا نقودها فى الأفراح، يترنحون سكارى على باب حجرتها، فتسند الباب بظهر متعب وعصا عوجاء وفيض أدعية وأحزاب، لهاثها المتلاحق يزداد حين تسمع وقع أقدام بجوار الباب ورائحة الخمر تخترق الخشب حامضة كليمون فاسد، فتجلس القرفصاء ظهرها لباب يُدفع، وعيناها تحتميان بوجوه صامتة محبوسة فى البراويز.



وكان يود لو يخرج لذلك الليل المنكفئ على أسرارد وهسيسه، يترصد المدى بألف ناب، يغمر الروح كزيت الخروع، يبرك كالوعل على خصه، ثقيلاً وباردًا كالرخام، واللمبة الجاز تنعس على مهل، ما الذى يجعل الليل قاسيًا كالموت، لا يبدد صمته سوى عصا (أبى الهوى) حين تنزل فجأة على رأس ثعبان مفلطح أو فأر مارق.

تتبدر المواويل من فمه فى بطن ليل أجوف وطيور طرشاء، هذا الموال يفجر الحنين، كم مرة ردده، هو لا يعد، فقط القمر الذى بص بعينى طفل من فتحات الخص، يستمع فى صمت ويكشف أشياءه على حصير الخوص، ويدغدغ عينيه الصاحيتين، أتكون أعواد الخوص التى تآكلت وكسرتها أرجل القطط هى الحاجز ما بينه والمارد، أم أنها بقعته التى عبأها بالذكريات والحكايا، وجلابيب صوف كالحة للعم عبده الذى رحل تاركًا عمامة مهدلة وبقايا شراشيب حرام معقوص، وخرزة باهتة دائمًا ما كان يحادثها فى الليل أمام دهشة الغلام، لماذا يريد أن يخرج إلى الليل، ولكن يخرج أو يدخل، الليل هو الليل، وبحر الصمت ممتد فوق الخلاء، وذئاب تحوم حول الخص، يدخلون أم يخرج، عصاه تخبط فى أرض رطبة، فيهتز المدى وتتفرق الأرجل، وتتطاير بقايا نوم، وتتهشم ذكريات الجسد على حصير فارغ، يصطدم فى جدران الخوص فيهترئ التراب تحته وتموت الحشرات مدهوسة، كم مرة يلقى ذراعه على جانبه ليحتضن فراغًا ووهما، تُرى كيف يكون دفء الآخر؟ نظرة العيون عن قرب فى الضوء الشحيح؟ فحيح الأنفاس الدافئة؟ كم مرة ضمه العم عبده فى هذا الخص الفارغ، قال له أن العفريت لا يخرج لاثنين، يده بين يقظة والمنام تفتش عن جسد وهمى، يكبس الصمت على أنفاسه، فيقوم معروقا ويفتح باب الخص الصفيح ويتأمل الليل، لعل جسدًا آخر يأتى من عمق المجهول والفراغ، يعبر القنوات والجسور ويأتى إلى هنا، يحمحم

على جسده الفرد ويتحسسان الليل بالمواويل.

ما الذى جعل طائرًا كهذا يسحب خيط الهم والمواويل والحكايا وينسج فى فضاء الله عشًا من فرح.

***

عينان تحومان فى زحمة السوق، جاءتا من زهر النوار وظل السيسبان وتدفق الماء فى الأرض العطشى.

عندما واجهته... سحق الهمس هدير السوق وتسللت الروح هائمة فوق شجرة اللبخ وعامت مراكب الورق فى طشوت الماء، فهلل العيال وصاحوا على فرش الظل، وانطلقت أغنيات الحصاد وصوت بائعى الحناء وحاجيات البنات تشرخ صمت السوق، ندية كالحداء، ويلمع الترتر فى عين الشمس الصاحية، ولفح هواء ندى الإيشاربات الملونة فرفرفت كأعلام الفاتحين، واستدارت غوايش البلاستيك فى حبال الكتان، ودعك بائع العطر يده بفوهة زجاجة فعام السوق فى رائحة المسك، بائع الطبول نقرش على واحدة مشدودة فاهتزت صدور البنات، وتمايل خصر النخيل والصفصاف على شطئان الترع، وملأ النبق أيدى العيال.

يداه اللتان كانتا تمران بخشونتيهما فوق الأيادى كاحتكاك أحمال البوص على ظهور الحمير فى جدر البيوت، تتوقفان فجأة عند يد من فطير الرقاق، فاقشعر الجسد وسرى النمل الخفى تحت الجلد، وامتد خيط وجسر وحبل سرى داخل المقطوع من الأهل والصحبة والمكان.

وأصابعها التى ما لامست خشونة يد رجل... نامت كيمامة فى براح كفه، وحلقت عيناها فى وجه عريض، وذقن خشنة، وشارب كث، وفارس وحمال هموم، وجبهة تنضح عرقًا وعنفوانًا وصداً وتهديدًا لأولاد عمها الذين يسنون أسنانهم على عتبات الجوع والحاجة ويتهيأون لأكلها حية.

أهذا ما أولته رؤياها بالأمس وهى تزف على جمل أبيض بين زروع خضر وغمزات بنات ومجامر بخور وحناء تنقش فوق الأيدى والأرجل، وأبوها يقفز من بين حطام السنين، يلف شاله الأبيض ويترك كمادته طرفه مهدلا على عباءته، يرقص بأقدام شاب وقلب طفل، ينضح وجهه بالحمرة والفرح، ويد العريس تمتد من بين الشجر والأجساد والزغاريد، فتنطلق الأعيرة النارية كعصافير مبتهجة فى فضاء القلب، وأبناء عمومتها يندسون خلف الجدر ووراء الأشجار ويمضغون غيظهم وتتعالى خبطات أكفهم المتحسرة، وفارسها، يمضى بها صوب الدار الوسيع والغيطان الممتدة حد الشوف وسط صليل سيوف ودقات دفوف. وما أن ينسلخ الفستان الأبيض عن الجسد البكر حتى يجتاح الصقيع فضاء المكان والساقين المكشوفين، فتدعك عينيها فى فرح وتغطى على مهل جسدها المسجى بفراغ الحجرة وهسيس الجدران.

أم تراه ما حدثتها عنه ضاربة الودع فى الأيام الفائتة وهى تناديها من وراء المشربية وتجرى لتسحبها أمام أهل الدار، تغلق باب حجرتها فى وجه غمزاتهن ومصمصات الشفاه، وتتسمع بلهفة المشتاق إلى الكلام المنبدر من فم ضاربة الودع بسرعة أرجل الخيل، فتسمع كلمات (ضابط وولى وعريس ورجل جاء من وراء البلاد، تطوحه الرياح والجسور والسكك والهموم، وحيد فى حاله).

- يهزهز بيبان المقاعد ويحرك جريد النخل.
- يووه فسرى شويه يا خالة.
- أبو اللى ما يتمسك ولا حد يقدر عليه... وخلى بالك من الهوى.

وانسحبت ضاربة الودع من الباب الموارب وسرحت بندائها فى الشوارع.

والمنكفئة على وحدتها وألغاز المرأة، تفتش فى الأسماء والصفات

وتصعد إلى المقعد البحرى حيث الهواء يداعب جريد النخيل ويهز الباب بيد طفل، فتتسم هواء العصارى وتستحم بالضوء الشفيف.

والأصابع المتلامسة حركت الساكن وزحزحت الكلام المرتعش بين الشفاه وفجرت ينابيع المواويل، تنسحب فتنجذب، تبتعد فتقترب، عينان زائغتان كالقمر على صفحة الماء، ضفيرتان مجدولتان كالليل يتعلق فيهما الفارس ويصعد إلى حيث تختبئ الجواهر وينضج التفاح. شفتان جمرتان سبحان من أشعلهما فى شتاء بارد وليل طويل، تخرج الكلمات من بين تلال الصمت، دافئة، فترتعش اليدان الخشنتان.

- حط صباع يا....

- أبو الهوى يا حلوة.

كادت أن تصرخ فى فضاء الله، تعرى شعرها الذى ما داعبه النسيم، تستوقف الناس والباعة، تستجدى السوق الهادر أن يصمت، يسمعها مرة، القلب يتنطط والكلام المختبئ يقفز على طرف اللسان، ودعوات الأب الذىمات منذ سنين، ورؤيا ضاربة الودع.

تود لو تطفئ لهيب السوق وتشعل صوتها، ليعم النداء البرارى ويسحق أبناء العم الذين يتربصون بها، تعلن أنها ليست عقب بيت أو نهاية سلالة، فهى باقية بحجم هذا الرجل وقوة ذراعيه وحنو يديه وهمسه وخشونة صوته.

العينان ثابتتان عليه، تحلقان فى فضاء وجهه.

و(أبو الهوى) كان يتسمع النداء الآتى من داخله، يتغلغل بين وحشة السنين ومرارة الأيام ولفح رياح الليل والطبول الخافتة والأقدام المارقة أمام الخص دون سؤال، ووحدة الجسد وخواء الفراش، كان يدرك أن هاتين العينين مسكونتان بالتوق والعصافير والنداء الملبى، وشمس تبص عليه من بين أعواد الخص،

والمواويل والقرابين ونقوش الأجداد على المقابر، وحنين لأم لم يرها ودفء صدر الأب ساعة لسع البرد، وترنيمات الذاكرين، وسعال الساهرين، وفضفضة الرفاق حين تقصقص الأقدام الطرق الطوال الموحشة، وأحجيات الجدة حين تهدهد على حجرها (المعسعص).

فيرق صوته الخشن وتلمع العينان بالبريق ويمرق السؤال رغم هدير السوق ونداءات الباعة، يصب جليًا فى أذنين مكسوتين بليل الضفائر:

- اسمك إيه؟
- بدور.
- من فين يا بدور؟
- من نجع الطوابين... تعرفه؟
- أنا أعرف الدنيا كلها.

كان الملتفون يمدون أيديهم بالنقود.

- هات يابو الهوى.

فيبيع، لا يعرف كم أخذ وكم باع. هو فقط يتأملها عبر الأجساد والعمائم حتى اختفى ظهرها خارج السوق.

❋❋❋

بوابة الطوابين مشرعة فى وجه المدى، أسود حجرية تكسرت أنوفها وبصت فى بلاهة على أسطح البيوت الواطئة، باب من خشب الصندل عنيد أمام الريح والقدر العاجل والعيون المتطفلة، كتوم على حكايا الحجرات المتناثرة والمندرة الوسيعة والأرجل البيضاء المفرودة ساعة السمر وفرش الكشك وهمس العصارى والضرب والشتم وتمزيق الجلابيب الممزقة ومعيرة النساوين وتطوحات المخمورين وكرباج معلق بجوار عصا عوجاء واتكاء الحاج على مفرش الصوف اللدن فوق دكة كبيرة تكشف أبواب الحجرات

وتحتل بقعة الظل تحت شجرة الكافور.

سلالم على الجانبين تفضى إلى مندرة الضيوف ويمر منها العيال إلى باقى الحجرات، ومائدة بحجم حجرة تحتل الصالة، كانت تعمر أيام العز بالخراف المحمرة وقد وضعت فى أفواهها أعواد النعناع واستسلمت لأيادى تقطع الجلف وتعبئ الأفواه، الآن أسودت من عدم الاستعمال ووضعت أسفل منها حاجيات الدار والطاحونة المهشمة ونورج مكسر الأسنان وسرج قديم وطبالى تخرج ساعة الأكل لتمتلئ بالجبن والكشك والباذنجان المسلوق، تتزاحم عليها الأيدى، وعين الحاج على الدكة تلحظ وتسكت، يتكئ على وسادة تحجرت وينظر صوب البوابة الكبيرة.

أما إسطبل الخيل وزرائب المواشى فقد فرغت تمامًا إلا من معزة ضامرة ودجاج ينخل الأرض عشرات المرات فى محاولات يائسة.

البنت تقتحم الباب بوجه آخر، تمطر الصمت بفيض الأغانى، تحاصرها العيون المندهشة وتتوقف الطاحونة عن هرس الفلال وتسكت الأفواه عن الكلام وتغمر الوجوه سحب الدهشة.

آه يا عينى من الهوى   آه يا ليل من الهوى

وتدلق أمامهم أصابع البطاطا وتحتوى الحجرة غناءها المطوط.

- يعنى داخلة تغنى؟
- أنا عارفة يا أختى يمكن القيامة هاتقوم.

وكأنها لم تسمع، تلك التى اعتادت كلامهم وغمزاتهم، تسرب العمر فى البكاء والشكوى والمشاجرات، وهم فى النهاية يمدون أيديهم ليأخذوا ما بقى فى جيبها ثم يعاودون الإهانة من جديد.

الحجرة احتوت غناءها وقلبها الراقص، وجسدها يتنطط فكأنما يتقشر عنها ذلك الهم البارك كجمل فوق جسدها ووحدتها وملابسها التى ما رأت النور، وشعرها المضفور بحكمة،

والتراب الذى فرش كل شئ، العصا تخبط فوق المراتب والألحفة والستائر، تتزاحم الأقدام على باب الحجرة، وتتلاحق أنفاسهم المضطربة، ظلالهم تكومت خارج الباب المغلق وعيونهم تتناوب التحديق فى الثقوب، كأنها تميزهم من أنفاسهم الساخنة المضطربة، فيعلو صوتها بالغناء، وخبطات العصا، فيتسلل الغبار من شراعة الباب وثقوبه، يرتفع العطس فى الخارج وضحكاتها فى الداخل، تخرج الأثواب الملونة المحبوسة فى الدولاب منذ موت أبيها، تبعثرها بفرحة السنين وذهاب الهم، تتناثر على السرير والمنضدة والسجادة، فتتجلى ألوانها الزاهية، كانت هذه الألوان رمادية قبل ذلك، لم تكن تعرف أن لها تلك البهجة وكل تلك الورود العريضة، ملابس ما رآتها تلك العيون المتزاحمة على ثقوب الباب، يبصون بحسرة، هم الذين كلحت جلابيبهم ورتقت عشرات المرات، والعيد إلى العيد والثوب ما غادر الجسد.

- بص هدوم المضروبة قد إيه.

- ورينى كده... وأنا كمان... وأنا كمان.

العيون تبص وتعد، وهى تنثر ما خفى فى الدولاب العتيق وتسحب من تحت السرير وتعرض أمام الثقوب.

ترشرش الأشياء بعطر قديم فيستحم المكان بالبهجة، وحين تقترب من الباب الموصد تتراجع الأرجل والعيون والأجساد المتلاصقة، تصعد بالملاءات أمام الوجوه المندهشة فيتوقف الكلام الحائر على الألسنة، والدم يندفع فى الوجه الأصفر، وكلمات الأغنية تتجدد كلما تلاقت العيون، الملاءات يطوحها الهواء فترفرف كأعلام ويغط المدى بالبهجة، يتنامى صوتها فى رحابة الخلاء وفوق السطوح وأبراج الحمائم وجريد النخل:

- آه يا عينى من الهوى ....

الأقدام التى تعقبتها على السلم توقفت والآذان أنصتت:

- برضه المضروبة بتغنى.

صوتها يرفرف مع أجنحة الحمام الذى ترك بنانيه وحلق حولها.

XXX

البقعة الفارغة فى زحمة السوق كانت تمتلئ بعطر الأنثى، واقفة تنتظر. تفرك بيد متلهفة أوراق كافور يابسة وتغطى فطيرة الرقاق فى السبَت، تتأمل الباعة ويتأملونها، تتلاقى عيونهم فى صمت وهم يعبثون المكاييل بالبذور، وهى ملكة المكان فى هذا التزاحم، يد عفية تأتى من الخفاء، تحيط الجسد المسجىبالفراغ وتصد عنه الأجساد المتدافعة، يبتعدون عن خط وهمى يحيط تلك البقعة ويفصلها عن أكوام اللحم، وتتوارد إلى أذهانهم ذكرى ذلك اليوم الذى ما شهد السوق مثله، والعصا تحط على الرؤوس والظهور والأيدى المحاذرة، فيطلق أهل المكان تنهيدة ويبيعون ويشترون بلا فصال، الوقت يمر طويلا فيرسم علامات حزن على وجهها، سرعان ما يتجلى الوجه عن ابتسامة وهى ترى الفارس يأتى على حماره، فيحطان الجوال معا وتشترى على..... مهل.

XXX

الولد ابن زكية العرجاء لا يشترى ولا يبيع، كبر بحجم البغل وتبعثر الشعر على وجهه وما زال الرجال يسمونه ولدا، مع أن النسوة يتنهدن ويؤكدن أنه رجل كامل الرجولة، عين الطوابين فى السوق والطرق والغيطان ومكن الطحين.

كل يوم يعود راكبًا حماره البوص يخترق الدروب وهيصة العيال، يهيل التراب ويمرق كجمل فوق الظلال، يقتحم بوابة

الطوابين، يحشر فمه العفن ونفسه الساخن بين الحلقان والأصداغ فيتأففن النسوة حين يلامس فمه الخدود الناعمة:

- يا متيل ما تعرفش تقول وحنكك بعيد.

وتمسح بيدها آثار لعابه من على الصدغ الذى ازداد حمرةً فيضحكن باقى النسوة الجالسات ويعرضن خدودهن لفمه.

- ش ش شوفتها فى السوق معاه بتبيع بطاطا.

ويرشف من الخدود الناعمة.

فتضرب الأكف الصدور وتتعالى الشهقات:

- شوف البنت وأفعالها.

- ياختى مش عاجبها شباب الطوابين كلهم.

وينطلق ابن زكيه بحماره البوص حيث الرجال فى المندرة، فيحكى ما رآه، فيغلى الدم فى الوجوه وتتدحرج العمائم إلى سابع أرض وترتفع العصىّ وتسحب المسدسات، وتتهيأ الأرجل المتحفزة للانطلاق إلى السوق، تستوقفهم يد الحاج فيجلسون فى ضيق، ويعود بن زكية تدفعه النعال المرتطمة بظهره المختفى من فتحة الباب.

الحاج يتفحص وجوههم بعينين حكيمتين، يتلاصقون على الأرائك بأجسادهم العريضة وآنوفهم الطويلة، شموخهم الكاذب وشواربهم المحففة بعناية، فرشة واحدة دهنت كل هذه الوجوه بدم واحد، وجوه حمراء مائلة للسمرة وعيون مشقوقة فى جلد ناشف، وكأن المكان أخذ هيئتهم إذ لاذ الجميع بالصمت وانضموا للبراويز المعلقة والعصا العوجاء والكرابيج والطلاء المتساقط والوسائد الكالحة وحديد الشبابيك الصدئ ورطوبة البلاط واسوداد الخشب وبقايا زجاج ملون يجرح الضوء الداخل.

يعض الكبير على ضروس متهشمة وسنين فلتت وعز تبعثر وحكمة محفورة فى الذاكرة. زمن وهو يشاهد الأشياء تتقشر من

حوله وتتعرى الأيام من بهجتها ويرحل الأحبة على يديه، تنطلق أرواحهم على صدره. وجوه مصفرة وأكف مفرودة بحجم اليأس، وصدور أنهكها المرض وقلة الحيلة والعوز، تتأمله العيون الميتة بألف سؤال عن أموال أودعوها فى حكمته وخزانته ورفضوا أن يتقاسموا الأرض، الكل يأكل من تحت يده، من طبق واحد، تتغير الأصناف جودتها ويتبدل الخبيث بالطيب والباذنجان بالأوز، ومن يُظهر العناد أو التمرد يسمع الجميع صرخاته تحت لهيب ذلك الكرباج المعلق، شاهدة شجرة اللبخ على أجسادهم المربوطة حتى الصباح، كلهم عرى عن ظهورهم ولسعهم بقسوة الغريب، وكأن الدم لا يسرى فى نفس الجسد، وكأنه جاء من عالم آخر، يزوج من يزوج حسب مزاجه، لا أحد يختار، حتى جهازهم يذهب ليحضره بمعرفته، حسبما تراه عيون أحبة يضمونه بالليل ساعة أن ينام الجميع بأمره. كلهم كانوا كذلك، إلا أباها، من يومه عنيد، تزوج من خارج العائلة، وأصر على أن يأخذ حقه، هو الوحيد الذى لم يمت بين يديه ولم يشك حاله أمامه، حتى بعد أن أنجب هذه البنت (بدور) كتب لها كل ما يملك بيعًا وشراء، كم كان عنيدًا حتى فى مرضه الأخير، حين يتسند على كتف ابنته ويدخل حجرته ويظلان يحكيان للصباح وتتعالى قهقهاته، وساعة أن مات لم ير وجهه لا فى الكفن ولا فى القبر، فقد أوصى أن لا يراه ساعة الموت، وفى العزاء كان يتحاشى النظر إلى المعزين الذين توافدوا من كل مكان، هو لا يعرفهم، ولكن المرحوم بنى جسرًا بينه وبينهم فى المشاركة والزروع والأسواق، مؤكد يعرفون ما بينه وأخيه، لذا يتأمل عيونهم التى تمسح ذلك الدوار الكبير، حيث أنها المرة الأخيرة التى يحضرون فيها.

كل ذلك يدور تحت عمامته وهو يتأمل الطوابين بحسرة، ويستعرض أمامهم تاريخهم المزرى منذ أن مات الطواب الكبير،

الذى استطاع بحصانه وكرباجه ومكره أن يستولى على هذه الأرض من الأتراك ويزرع ويضيف حدودًا وناسًا ومجدًا.

- عملتوا إيه، بعتوها شبر شبر على السهر والفوازى.

ود سعيد الطواب أن يفجر الكلمات فى وجهه لولا المسدسات العامرة بالرصاصات:

- ما أنت أولنا يا حاج... حد عرفنا بيت فوزية غيرك.

ولكنه بلع الكلام وتنحنح وأغلق فمه وخشى بالفعل أن يكون قد تلفظ به، فلا زال الكرباج المعلق يعرف الطريق إلى ظهره، والحاج إن لم يكن قادرًا على الضرب فإن له ألف يد، وبمجرد النظر إلى عينيه ساعة الغضب تخرس الألسن الفصيحة، ونداؤه عندما يعلو بين جنبات الدار تنصت له كل الآذان حتى البهائم، وكأنما قدر محتوم، كرباج وليال طويلة، وعيون أهل المكان ساهرة تبص خائفة من وراء الشرفات إلى جسد عارى مربوط فى شجرة اللبخ، وأكثر من كرباج يطرقع فى جحيم الظلام وأياد خفية وقوة قاهرة، يترنح المستسلم تحت اللسع والتأوهات، فتحتوى الألحفة الأجساد المرتعدة.

وواصل الحاج حديثه الغاضب:

- أديها كانت قدامكم طول السنين دى... عملتم إيه... حد فيكم قدر يتجوزها.

رد سعيد الطواب:

- أنا حاولت كتير يا حاج وأنت عارف.. لكنها مش عاوزة حد من الطوابين.

- من حقها هى شافت منكم كلمة حلوة، تاكلوا فى أرضها وتدنسوا فى عرضها، البنت شكت كتير منكم ومن نساوينكم وأنا ابلع واسكت.

مخلوف الطواب لسانه مسحوب منه:

- يعنى نسيبها لواحد ياخد الأرض اللى سترانا.

كان الحاج قد أغلق أذنيه عن الأصوات والهمهمات من حوله ودار ذهنه يبحث عن مخرج أو مكيدة، يجذب أنفاس الجوزة فيذوب الدخان فى الضوء الشحيح. تتخبط الأفكار فى رأسه.

لم يبق سوى هذا البيت وأرضها التى دافعت عنها بيديها وأسنانها، على أى شئ تدور النوارج ودخان الأفران وأغنيات القطن ورائحة الشواء. والمرق حين يدهن الشوارب فتلمع بين جموع الناس، وتتكئ الظهور على هذه الآرائك وتحدد مهور العرائس، ويلهو العيال بفيض الثمار. وترتدى النسوة جديد الثياب وتطرطش المياه فى الطشوت وتخترق التأوهات عتمات الليل فيكشف الصباح عن وجوه منهكة وآجساد مبتلة بالماء، وتجر أمشاط الشعور حبال الضفائر. أنفاس معسل، وزجاجات بيرة إن وجدت، ورقاب أوز تحش على عتبة الدار يتطاير دمها على جلابيب العابرين، وقرطفات الأيادى فى أعواد الملوخية، والعزائم التى لا تنتهى، والكلوبات التى تملأ ساحات الدار.

سوف يقضى هذا الغريب على آخر خيط من كرامة يربط العائلة بهذه الأرض وهذا النجع الذى لا يملكون سوى اسمه.

نقتلها؟ لن نسلم من جبروت سيد الطواب، ذلك الداهية يفعل كل شئ إلا قتلها، يحبها رغم عنادها وإهانتها له، لو سمع ذلك لقتلنا جميعًا قبل أن ننال منها.

إيه أيها الحكيم، تلقى بها فى الهيش، كيف؟ لم يتبق فى العمر أكثر مما مضى، العظام تقوست، والليلة أحسست أن الماء يتسرب رغمًا عنك على سروالك، قمت على مهل متسللاً من جوار الحاجة ونضحته بالماء وعدت، ضيعت كل شئ ولم يبق سوى تلك

البنت وأرضها، أتلقى بها فى وادى الهيش؟

إنه يتذكر ذلك الوادى الممتد حتى الصحراء، يطبق كالهم على النجع، الداخل فيه مفقود، ظلام لا ينقطع وعواء لا ينتهى، يتنامى الخوف فى صدور العيال كأشجار سنط وهم يتسمعون الأحاديث عنه، كل الأشياء تنتهى على حافته، والعيون الوجلة ترسل نظرة من فوق السطوح وجريد النخيل، حيث قناديل الهيش تتحلوح وطيور تنحلق فجأة وتموجات فى بقع متفرقة، تغوص الأشياء بين أحضان الجن وكائنات تتصارع واللصوص والذئاب وعظام المقتولين، حتى الحكومة تكتفى بإطلاق رصاصات طائشة تكسح قناديل الهاموش فيتطاير ليغطى المكان، رصاصات تخترق أعشابا وعتمة ويختفى دويها داخل المجهول.

أبوه ابن الطواب الكبير كان يشير جهة الهيش ويقول (إن الخطر يأتى من هناك، وإذا واجهك خطر فأرسله هناك).

الحجرتان المتداخلتان اللتان بناهما الطواب الكبير على حافة الهيش لم يكونا إلا لمقابلة اللصوص وأولاد الليل وأصحاب الثأر والمواشى المسروقة العائدة إلى أصحابها وأيدى تقبض وتنهب وتقتل وتسكت، هو حتى الآن يعرف بعضهم، يأتون إلى هذه الحجرة فى عتمة الليالى بصحبة سعيد الطواب، كلهم يأخذون ولا يعطون، فقد قلّت هيبة هذا الرجل، والناس الذين اشتروا الأرض بنوا بيوتًا عالية وسلحوا أنفسهم واستعدوا لأى خطر. كثر الكلام من حوله وكادت الأيدى أن تتشابك بعد عتاب مرير فارتفعت الأسلحة والعصى لولا صيحة الحاج الذى انتبه:

- اقعد أنت وهو... أنا لقيت الحل.

تعرت الأرائك من مؤخراتهم وقتل أحدهم برغوثًا لسع رقبته، اتجهت الآذان إلى الحاج الذى واصل كلامه فى ثقة:

- ياخدها ويتعد هناك فى الحجرتين على وادى الهيش ويفوروا هما الاتنين.

تلاقت العيون المندهشة مرة أخرى وضربت الأكف على بعضها وتوالت عبارات الاستحسان على كبيرهم، فاتكأ على أريكته ونادى على أحدهم وأشار إلى الجوزة:

- غير الميَه.

***

عندما شاهدت ظهر ابن زكية العرجاء عائدًا جهة النجع، انتفضت فزعة، تتخلص بحنو من قبضة اليد المتشبثة بها، يستجديها أن تجلس حتى نهاية السوق، فتطاوعه وتجلس، ثم تتذكر أن الولد قد تخطى الجسر بعصاه، فتقوم، ألف هاجس يدفعها ناحية النجع، يده الراغبة تشدها بشوق، تقوم وتقعد وتقوم:

- والنبى اقعدى لما السوق يخلص.

- لا والنبى يأبو الهوى أنا عارفة اليوم ده مش هينتهى على خير.

وتطأ بقدمين مسرعتين وقلب مضطرب آثار عصا ابن زكية حيث تتلوى على التراب وتنحنى فى الشوارع وتختفى فى بيت الطوابين.

***

عيناها اللتان جادتا بالدموع وسط أبناء عمومتها لم يعفيانها من السب والعُصىّ التى ارتفعت.

هى فقط تبكى لتبرئ عرضها من الدنس وغمزات النسوة اللاتى تركن أعمال البيت واصطففن فى مدخل البوابة ليقابلنها بالسب والتوبيخ وقلب الشباشب وترمية كلام أمر من المر، يتغزز كالشوك فى جسدها ويودى بها إلى واد سحيق، يتفجر الغل ويطفح على

وجوههن وألسنتهن، همهمات وشتائم ونهش بأنياب بارزة.

تعلم أن كل هؤلاء الملتفين حولها شاهرين أسلحتهم وألسنتهم ما كان لهم أن يتحدثوا عن الشرف أو العرض، وهم الذين امتدت أيديهم ونظراتهم ودفعاتهم فى بابها الموصد فى محاولات يائسة لاقتحام حجرتها، وهم أيضًا الذين تمتد أيديهم بذل السؤال واستعطاف القلوب وتضور البطون الجوعى، ليأخذوا ما معها فيملأون بطون عيالهم ويشترون العباءات التى يلفونها على أكتفاهم المتخشبة ويرفعون أيديهم بالنقوط فى الأفراح ليعلن المداح عن مجد الطوابين الزائف ووكستهم التى أصبحت تلاك على المصاطب وأمام الأفران، لو صرخت لتعروا أمام الناس وانكشف المستور وظهرت الفانلات الممزقة والصدارى مكسرة الأزرار والسراويل المتهالكة وردد الطير فضيحتهم، لولا الأفدنة التى حمحمت عليها وأحاطتها بعيون صاحية وألف ظفر وناب ما دارت الطاحونة ولا ارتفعت أغنية الأفران ولا شم العابرون رائحة الفطائر، ولا برقت كرادين الذهب على صدور نسائهم ولا ذبح الأوز على عتبات الدار، ولا نادى المطرب فى زحمة الأفراح "سلام للطوابين ورجال الطوابين" فترتفع الأعيرة النارية وتطير بمالها فى الهواء.

لقد قرأوا ما سوف يُقال لو تخلت عن صمت السنين. فارتعشت الأيدى بالعصى وسكتت الهوجة التى كان قد بدأها سعيد الطواب.

فأمر الحاج بإغلاق الباب ونادى عليها ببقايا كبرياء فى وجهه:

- مين ده يا بنت؟

- مين إيه؟

- هتعملى نفسك مش فاهمة، الراجل بتاع البطاطا.

كانت تستعد لمثل هذا السؤال منذ أن رأت ابن زكية العرجاء يبص من بين الأجساد المتزاحمة ويعود مسرعا، فاندفعت كالفرس

الشارد، تمرق فوق الظلال والقنوات وحكايا المارة والتواء الطرق، تتلاحق الأفكار فى رأسها اليمامى، تتوه الحكمة وتتبعثر الإجابة التى كانت قد جهزتها. تعرف أن الجواب على قدر السؤال، وأن الحاج يلمح الكلام حين يلف ويدور وتزوغ العينان وتضطرب الشفاه، فتكون الغلبة له، إذ أنها لعبته، فأجابت من قلب متلهف:

- طالبنى فى الحلال.
- وأولاد عمك مش عاجبينك؟
- القلب وما يريد.

"القلب وما يريد"....

عبارة ليست جديدة عليه، فقد سمعها من فوزية وهى تدثره أيام الشتاء والعز فتتغلغل فى ثنايا العظام المهشمة وتهدهد الجسد المضطرب، وتسلت الجنيهات من جيبه المفتوح، فيخرج عاريًا أمام الظلام والعوز.

ولكن التى تقول ذلك الكلام الآن بنت من بنات الطوابين واللاتى تعودن أن يُسقن أمام الرجال كالأغنام.

كلامها الهادئ يحطم كل محاولة تدور فى الأذهان لإبعاد ذلك الشبح الغريب الذى كبس على النفوس كالهم، وحط كالقدر على سطوح النجع وسباط النخيل وستر الحكايا وهسيس الحجرات وهمس النسوة، سيلتهم الأرض ويكشف الستر عن الأجساد الملفوفة بالعباءات والعمائم المزهرة.

كان يدرك بحنكته من خلال ثبات كلامها الخارج من عمق الأرض الزرقاء وفيض الحكمة ووجع السنين وهم الوحدة وحلاوة الروح والإنطلاق أنه آن الأوان ليصيب الهدف الذى أصبح واضحا، فصوب رصاص كلامه إليها:

- الغريب ميقعدش معانا.

من جملة الأفكار التى راودتها هذه الفكرة ولكنها استبعدتها عن خاطرها وهى تواصل السير، البيت بيتها والأرض لها وهم يمدون أيديهم بذل الحاجة، كيف يجرؤ أحد أن يخرجها، وهم لايستطيعون الدخول عليها فى حجرتها، ولكن الحقيقة الآن واضحة، هو يطردها من ذلك البيت وتلك الحجرات والأرض وشجرة الكافور ونقوشات الجدران وملاءة الظل والبئر العميق وبنية الحمام ونخلات زرعها أبوها بيده وعتبة الدار التى كانت تتقافز فوقها لترتمى بين حضنى أبيها وأمها المفتوحين، ولكن كل هذه الأشياء تقشرت عنها بعد موت أبيها، فأصبحت ترى الأشياء متشابهة، بالأمس فقط تفحصت بنانى الحمام، تهشم معظم الفخار وامتلأ فراغها بالظلام والمجهول، حلقة المواجع تطبق عليها، كانت ستختنق لولا يد ذلك الغريب التى فرجت عقدة الحبل الملفوف حول الرقبة والقلب، لقد أحست باتساع المدى، ودلت قدميها على حافة البئر الجاف وغنت، فسمعت صدى صوتها يتردد فى ضوء القمر، اليوم فقط تعيد ترتيب الكلام والحكم والمواويل وحواديت الأب.

- أبوه الغريب ما يقعدش هنا.

مازال صوت الحاج يخترق اللحم الطرى ونداوة القلب والجدران، تؤكده الوجوه المحيطة والأكتاف المتلاصقة والعمائم المهدلة، خافت عليه من هؤلاء الأجلاف الذين ضيعوا كل شئ، ستمضى معه إلى حيث شاء القدر وحط الحمام الغريب وخرت بلحات النخل على التراب، ستعشش فى بنية قلبه كحمامة طال دورانها فى الفضاء، تحميه من الليل والويل وعيون أولاد العم وأنياب الثعابين وهذا البركان الذى يغلى تحت العمائم.

- والأرض يا عمى؟
- ادى إحنا بنزرعها، ولا عاوزه الغريب ياخدها كمان؟
- يعنى أروح فين يا حاج؟

- فى الحجرتين اللى ع العيش.

مرة أخرى تدور بها الدنيا وتطوحها الريح كقشة وتنزعها الأيدى كنبتة غريبة فى حقول القمح، فتدور فى دوامة لا تنتهى وهى تتذكر الأيام الماضية وطلقات تمرق فى حضن الليل وعواء ذئاب وصراخًا يعلو شارخًا الفضاء الصامت.

حضن الأب يضمها فتحس دقات قلبه تنغرس فى ضلوعها المرتجفة، يحميها من مجهول يدق باب الليل بكف الرعد، يرتعد صوتها مدفونًا فى صدره:

- من فين الصوت يابا؟

- من بركة الهيش.

صوته يتدغدغ تحت آلاف المطارق وكأن يدًا تكمم فمه حتى لاينطق، فلتصق بالجسد الواهن وتسمع دقات قلبه تزداد اضطرابا، ورغم ضمة الحضن ودفء الأنفاس.. تغوص فى دوامات وكوابيس لا تنتهى.

- الهيش يا حاج.. مفيش خاطر لعضم التربة.

- مفيش غير كده يا نجيب خبره.

زامت الحلوق المتربصة، فواجهت عيونهم، كان الإصرار يطل من مسدساتهم العامرة بالطلقات، وسعيد الطواب يأخذ وضع استعداد، فأصرت أن تحتفظ بـ(أبى الهوى) إلى الأبد.

لحظات صمت مرت عليهم ثقيلة بين جدران المندرة، العيون تتلاقى معاتبة وساخطة، تتدحرج بصاتهم المنكسرة تجاه أحذيتهم، فتنحنى الأكتاف كعلامات استفهام وتسرح الأفكار وهم يتذكرون فوزية وبيت فوزية.



بيت فوزية ممتد بحجم انبساط الرضا ودغدغات الأصابع فى ضلوع الطفل وقهقهات المهموم حين يدق بابه الفرج وانتفاخ عروق رقبة المداح حين يرش المواويل، ودخان يتصاعد عبر حجارة الجوزة فيدارى العناق ويدور الذهن، ويغرف اللسان من ستر السنين والأسرار، فينطلق الكلام على حاله كالفرس الشارد، البيت متسع لألف يد تطرق وقلوب خاوية ومراهقين تحت التدريب والنول والحمص ولب الدكاكين وزجاجات البيرة، والمطرود من بيته فى أنصاف الليالى والقبقاب فى ظهره، والضحكات والمواويل والحكايا البائتة، وصراحة المخمور حين يفضفض، وبدء التدابير ونهاية المشاوير، وانهيار الجدران العالية، وعلو البيوت الواطئة، والحاكى، والشاكى، وصاحب الهم، وزوج الدميمة، وابن الليل الطريد.

مَنْ قال أن الألسنة الصامتة تكاد تنفجر وتطرقع كالكرابيج فى المندرة الوسيعة لتوجه الاتهام إلى كبير الطوابين بأنه أول من ذهب؟.

مَنْ قال أن الخفراء تجردوا من أسلحتهم فى السلاحليك وحملوا زجاجات الخمر وتبعوه إلى بيت فوزية؟.

مَنْ قال أنهم ينتظرون حتى العناق وانغلاق الباب وسماع التأوه؟.

مَنْ قال أن كبير الطوابين تجرد من ثيابه ووقاره ومحفظة نقوده ورقص أمامها عاريا؟.

مَنْ قال أن أخوتها الرجال الذين يشترون الأرض والبيوت غير عارفين؟ أليس الآن على ضوء مصباح باهت يعدون نقود الليلة الماضية ويضحكون فى عبهم؟

مَنْ قال أن كبير الطوابين عندما باع آخر فدان وقبض الثمن وفرد النقود أمامه سقط مغشيًا عليه.. فقد كانت نفس أوراق النقود التى بعثرها بالأمس على صدرها.

مَنْ قال أن الطوابين سلكوا نفس الطريق.. حتى مرابط الحمير باعوها؟

مَنْ قال أن بنت عمهم رجلها برقبة ألف رجل حين حافظت على أرضها وعرضها ووصية أبيها الذى مات كمدًا من أفعالهم؟

مَنْ قال أن سعيد الطواب حام حول بنت عمه وطلب الود والوصال ولما لمس صدرها صرخت ودويت الشبشب على فمه وسط دهشة الطوابين؟

مَنْ قال أن فى لحظة صفاء بين الطوابين وفى حضور آذان ابن زكية العرجاء اتضح أن الحاج نفسه هو الذى حرض سعيد على ذلك ليضع أنفها فى الأرض ويجبرها على التنازل؟

إن الباب الذى أمر الحاج بإغلاقه لم يزل على حاله، والأذهان والأسئلة تتدفق على تدور تحت العمائم، الألسنة الصامتة، قيل كل شئ دون التلفظ به، والكل يصرح لنفسه صامتا:

"أنا ما قلتش حاجة".

فاتجهتُ إلى الباب المغلق وفتحته وخرجتْ.

⁂

أحدهم اقترب من أذنه وهمس بنفس ساخن:

- قوم عاوزينك فى نجع الطوابين.

عندما تلفت وجد وجوهًا غاضبة وعيونًا متقدة وأيدى متحفزة وأفواه مسدسات تبرز من فتحات الجلابيب وتتجه إلى صدره، فطوى جواله وامتطى حماره وسار معهم فى صمت.

الصمت الذى حل بالمجلس سحق ما تبقى من شجاعة فى جسده وأودى به فى واد من الدهشة.. التى عبر عنها وجهه المرتبك حين دخلتْ عليهم.

نظرة تأكيد ترسلها من فوق العمائم، تخترق كل الحواجز، وتهدهد قلبه وترشرش عليه عبق السكينة والود والوصال وملاءة من الظل وماء القلال وهفهفات النسيم وارتياح الصدر، توصيه بأن يثبت ويطمئن، جسر بين العيون تحار عليه أقدام الجالسين وتتوه أفكارهم، تتردد النظرات بين وجهين يلتقيان فى زحمة الأجساد والضوء الشاحب ورائحة البارود والتواء الكرابيج ولفح الأنفاس الحارة ودقات القلوب المشتعلة غيظا، كم رسالة تمت فى هذه اللحظة؟ كيف يكون الحب؟ لهيب الشوق؟ طعم الفداء؟ رائحة الجسد؟ أسئلة لا تنتهى فى أجساد متخشبة لا تعرف سوى النهب والقتل وسلب الأراضى البور وفتح حظائر البهائم، وجهان يحلقان كحمامتين بين خيوط الشرك، وهم يقيسون طول الجسد والملامح والوجه الغريب، والرسالة قد وصلت من صفاء العيون وانسدالها قليلا.

عصا الحاج تنخس جنبها:

- هو ده؟
- ايوه يا عمى.
- طب غورى.

تود الآن لو تظل جواره فى هذه اللحظة، تحميه من شر واقع، ولكن صوت الحاج لا ينكسر أمام الغريب، فتواجه الضوء الآتى من السقف المفتوح وبصات النسوة ومصمصات الشفاه والسخرية ولسع الكلام وصوت انغلاق الباب وراءها فى عنف.

العيون تتفحصه بعداء مسبق وحوار مبتور، يتضخم جسده العريض أمامهم سدًا منيعًا، يتأملون هذا الغريب الذى حط عليهم كالهم وذلك القدر المختبئ، يداه هاتان ستكونا لهما الغلبة، سوف يضمها إلى صدره وتحكى له عن أسرارهم، تعريهم أمامه، وربما فى لحظة صفاء تكتب له ما عندها.

فقط هو الحاج الخبير بأنساب الناس ومعادنهم، يتفرس فيه (وجه فارس تتنجر منه الحمرة، وعينان غائرتان فى عمق الزمن والصلابة)، فراسته لا تخطئ وأبناء الأصول لهم سيما تميزهم، ربما النظرات الواثقة. أو البشرة الرائقة وحجم الأنف واتساع العيون ومساحة الجبهة وتدفق الدم تحت جلد البشرة.

لقد صمت الحاج فجأة ربما ليقلب فى ذاكرته عن ناس رآهم وشيوخ عائلات يعرف دمها وعروقها، ربما لأن ذلك الوجه الصامت يذكره بشئ، يوقن أن التهديد لا يقدم ولا يؤخر مع رجل كهذا، يبتلع المجلس بهيبته وحضوره، استطاع أن يحتوى قلب البنت ويكبح جماح عنادها وكبريائها ويسيطر على أفعالها فى أيام قلائل، ولم يكن السؤال عن الأصل والفصل هو الذى يغير من الأمر شيئًا ولكنه لا بد منه:

- أنت منين واسمك إيه؟.
- أنا اسمى أبو الهوى ومن اليوم منكم.
- عاوز إيه من بنتنا؟
- الحلال يا حاج.

جواب حاضر، وكأنما القادم من وراء الزمن وبوابات القدر وتقلبات الدهر وحصى المصارف وطرد الكلاب الضالة حين تحاصر الخص وقتله العقارب بكف يده ونحنحاته التى تخيف العابرين وافتراشه ضوء القمر وندى الغيطان.. يعرف ما يقال حتى يوفر الأسئلة وكثرة الكلام.

تعيد العيون قراءته من جديد، يخيل إليهم أنه يعرف كل شئ عنهم، ربما حكت له البنت عما يدور خلف هذه البوابة، إذن لماذا يتلاشى الخوف من وجهه بهذه السرعة وتحل الهيبة والحضور ويتكئ على الأريكة بهذه (البجاحة)، كأنه يؤكد أنه لا فائدة

من الكلام الذى جهزوه وعبارات التوبيخ والطرد والتهديد.

- يأبو الهوى ملكش قعاد فى دارنا.

- اخدها واقعد بيها فى أى مكان.

من قال أنه يريد دارًا وسقفًا وجدرًا وحواجز. هو أخو الخلاء وابن الندى وصديق النجوم، لا يحلو له النوم إلا فى حضرة القمر وطيور الليل المارقة، هو يريدها هى بدفء حديثها وتدفق النهار البكر فى وجهها الطفل.

إصبع الحاج اخترق الحواجز والنخيل وأشار هنالك حيث الخلاء وقناديل الهيش وشمس تحتضر وغيوم تختفى وراء التلال وجدران واطئة لحجرتين على حافة المجهول.

فوافق الغريب، وأرسل للمأذون، وخرست الألسنة الشامتة عن الزغاريد واندفع سعيد الطواب من الباب مغتاظًا كجمل هائج فاصطدم بالمأذون الداخل.

***

حجرتان متداخلتان فى الخلاء الممتد حد الشوف. يلتحفان بالفراغ الأبدى، يطلان على وادى الهيش وقصب العفريت والأعشاب المتشابكة، حين يلتهم سواد الليل قناديله البيضاء وشواشى الأشجار الكثيفة، تنبدر منه الطلقات ويتنامى عواء الذئاب وفحيح الأفاعى وضربات أجنحة طيور الليل وصرخات الفئران بين أنياب الثعابين وأصوات لحيوانات ضائعة تمزقها الأنياب الجائعة، الريح تطوح قناديل الهيش فتتماوج وتتصادم وتتطاير جيوش الناموس والهاموش فتعبئ فراغات الشوارع والبيوت ويتعقب الدماء الحارة، فتضرب الأكف وتتطوح الشراميخ ويوقد العشب اليابس ليطلق سحابات الدخان أمام مارد يمص الدماء فى نهم، صياح وهرش

وضرب وتطاير وليل مظلم وصراخ يغطى سماء المكان، والقادمون ساعة الغروب تنهمر عصيهم على مؤخرات البهائم وجوانب الخراف والمعيز المتطفلة على حشائش المكان، حيث أفواه الذئاب مفتوحة تجذب رؤوس المواشى والخراف وتسحبها إلى بحر الظلام تحت صراخ صاحب المال وخوار حيوان يستسلم ويسحب داخل أعشاب تتهشم وتتماوج فى أماكن متفرقة، لحظات إن لم يرتم الطفل فى حضن أمه وتنغلق الأبواب ستلتهمه قوافل الغيلان وعيال الجن وأشباح القتلى.

تعلم أن فى حضنه ملاذا من الذئاب والأشباح وأولاد العم ووحشة الدنيا، ويعلم أنه الغريب أخو الليل والخلاء والنجوم والطيور والخص الذى تدشدشه الريح فلا يصد عدوًا ولا يمنع بردًا أو مطرًا، لا جدران تحجبه عن عيون الناس ولا يد تطبطب عليه حين يعود آخر النهار محملاً بالمضايقات وقروش قلائل وجسد متعب وحمار أكل الخلاء شعره.

جدران أيما جدران، مادامت معه سيعبئ المكان بالمواويل والحكايا. يتصقص الليل بالضحكات ورائحة الشواء والصابون المعطر.

كانت شمس العصارى مازالت تغسل وجه الدنيا وتودع الأشياء لتبيت فى سكنها البعيد، واقتربوا بالجمال محملة بأشيائها، على حافة الوادى شيعت الجمال نظرها فوق ملامح الأشياء، ومرق ثعلب بين الحشائش فكادت تجفل الجمال التى أناخوها بصعوبة.

نظر (أبو الهوى) بعينى فارس إلى وادى الهلاك الممتد فى قلب المدى لا نهاية له، عمائمهم تلاقت وقناديل الهيش والنحنحات وعواء الذئاب والأصابع القابضة على العصىّ والمسدسات ومروق الثعابين بخبث بين الحشائش.

ما إن ألقوا الأشياء على الأرض وفرغت الجمال حمولتها حتى

انهمرت العصى على رقاب الجمال فهبت واقفة.

الحاج الذى أسندوه حتى ركب الجمل وخطى به فوق الجسر المتلوى حيث النجع، التفت من عليائه وصاح مع الشمس الغاربة:

- خليه ينفعك.

انهال الغفار وراء أقدام الجمال.. واختفوا بين الأشجار البعيدة، وسقطت الشمس بين أحضان الهيش، والتهم الظلام خيوط الضوء المحتضرة، وعوت الذئاب، وانطلقت طيور الليل هائمة، وزحفت الحشرات على الأرجل تتشمم زفر الدم.

الخلاء والليل، وجسدان يقتربان فيلتصقان ليصبحا جسداً واحدًا يواجه مارد الليل بآلاف الأذرع.

على ضوء مصباح شاحب تتراقص ذبالته فى حضن الظلام تولت عملية الكنس وقتل الحشرات وإطلاق البخور والشيح والأدعية القديمة، ترشرش التراب بالماء ودمع سخى وشوق إلى أب وأم تركاها فى صقيع المشاعر وبرودة الأحاسيس، من علمها خط الكحل على غليظ الحواجب، بنت الناس أشهى من الشهد وأرق من نسيم الصيف، رائقة كالحليب، نقية كالندى، والليل حين تجلى أمامه بياض الجسد ازداد هسيسه وانكفأ على أسراره.

والذى انتهى من ترتيب الأشياء ورصها كان يدخر بقية عافية فى جسده المعروق وشوقه المتقد، إنها اللحظة التى يرى فيها الآخر لأول مرة، يريد أن يلتفت فجأة وهو الذى ما أوقعته حبائل النساء، يتردد بصره بين أشياء معلقة ويلمح ظلها على الحائط وهى تتجرد من ثيابها، يود لو يعانق الظل الانسيابى.

- تعال أحنيك يا أبو الهوى.

دفء السنين وانديـاح المياه فى الأرض العطشى وانطلاق الفرس الشارد، وصوت بنت الناس ما أعادها، الحصير المهترئ وطبق

الفخار وعجين الحناء وأوزة جهزتها بالأمس على حين غفلة من النسوة، كتمت فمها وذبحتها ودلقت الريش فى مصرف قريب.

"حنيلى العريس حنيلى"

ضحكات وهمهمات وأغنيات تتعالى، والأرجل تكسوها الحناء ونقوش على ظهور الأيدى، ووشم قديم على هيئة النخيل والغزلان، تصفيق بأكف كالطواحين وكأن آلاف الأيدى تشارك، إذ على طبق قديم نقرشت دقاتها ورقص الغريب ودك الأرض والتهم الكبدة واستلقى ضاحكًا أمام عينيها.

لقد اقتحم العالم الجديد بكل ما أوتى من قوة وحنو وهدهدة وضحكات، فاتسع الكون فى عينيه مد البصر وارتاحت ثورة الجسد الهائج ولطخت الحناء الأثواب والحصير، وبقع حمراء كبصمات يزداد توهجها كلما اقترب الصباح.

ليلة طويلة ما ذاق فيها النوم، يؤكد لنفسه هو الملفوف بالليل وخواء المكان والطلقات وعواء الذئاب بأن الرأس طالما دقت عليها الطبول، والروح لا تخرج إلا مرة واحدة، وهؤلاء الجيران الجدد بين دهاليز المستنقع لا بد أن يتصادق معهم، أو يعتاد عليهم، إنهم سيتشممون لحمًا غريبًا ويتلهفون لغذاء شهى، يعض على أصابعه وغيظه المكتوم وفرحة تحوم حولها الغربان وليلة كان من الواجب أن لا ينشغل فيها بأشياء أخرى، وبنت الأصول لا زالت على ندواتها تتأمل فى حنو جسد الرجل الصاحى، كم قاسٍ أيها الليل، يتشتت الذهن وتزوغ العينان المتربصتان فيضرب الأرض بعصاه، ترتفع الخبطات كأعيرة مكتومة أمام قهقهاتها، يؤكد بأنه يشتاق إلى أكباد الذئاب وفراء الثعالب وجلد الثعابين.



الحاج داخل الديوان وعلى ضوء الكلوبات ظلت عيونه والطوابين ساهرة بين دخان الجوزة والكلام المعاد والبصات الماكرة وظلال الأعمدة والأبراص المارقة بين عروق الخشب، تتطوح العمائم على الأرائك وتتساند على كلمات متناثرة ونحنحات متقطعة، يغطسون ويقبون فى بحار النوم ليجدوا الحاج على شاطئ الليل متيقظًا يكركر فى جوزة فارغة وينفث دخانًا وهميًا ويتفحص صور الجدران والكرباج الذى تكرمش من عدم الاستعمال وصورتى أبويها تطلان بألف سؤال من وراء زجاج باهت، لا يجدى العتاب مع الذئاب، هكذا يقول وجه أبيها الصامت من وراء السنين، نفس النظرة الحكيمة والنصائح التى كانت تنزل كالسياط على الأجساد التى لا تعرف المسئولية أو الحفاظ على المال أو العرض.

- مش هتنام شويه يا حاج؟

سؤال يوجهه كل واحد منهم يصحو فى تثاقل ثم يغرق فى النوم والأحلام، إذ أن الصباح سيكشف عن بقايا عظام لرجل غريب وامرأة خرجت عن الطوع، ستنطلق الأعيرة إذن ويعاد لف العمائم وفتل الشوارب وتقسيم الأرض، وكلما سمع اعيرة مكتومة هناك عند الوادى ارتاح على أريكته وتلاقت عيونه والطوابين، وصوت الذئاب يعم المدى فيتلاصقون فى بهجة وينتظرون الصباح بعيون متلهفة.

الذئاب التى نادت بعيدها وجمعت شملها.. سنت أنيابها على ستارة الليل والغيظ، فلمعت العيون المستديرة ووقفت أمام الباب، تقوست الظهور وحامت واستدارت وحفرت المخالب فى الأرض حفرًا بحجم الغيظ ولهفة الاستعداد واشتهاء اللحم الذى حضر إلى مملكتها.

الأذنان تتسمعان همهمة ولهاثًا وزثيرًا يتزايد خارج الباب، يدنو صاحب الليل والويل من الثقب ويبص بعين صاحية، فتأخذ الذئاب وضع استعداد وتحمر العيون وتبرز الأنياب وتحفر المخالب.

عينه الثاقبة تخترق حجب الظلام وجبال الخوف وتتفحصهم، عين الفريسة تلاقت والعيون الملتاعة، حدد الكبير بينهم، يأخذ حيزًا فى الظلام بقدر الموت والهم والعناء ولسع البرد فى الجسد العارى وكرابيج الهجانة، لحظات وأنيابه هذه تتلذذ لمذاق الدم وتقطع اللحم مزقا. والمخالب تلك ستحفر فى البطن حفرة أقسى من الجوع والكمد وتلوى الجسد ساعة هجوم المرض، ما زال الموت يأخذ أشكالاً مختلفة. يطارده أينما ذهب، الناس يموتون على فراشهم، تسبل عيونهم الأيدى الحنونة، وتحملهم الأكتاف الرحيمة إلى المقابر وسط نهنهات المشيعين، وتمتد أيدى الأقارب لتأخذ العزاء، وأنت من ذا الذى يمد يده ليسبل عينيك عن قسوة المدى، ومن الذى يحمل جسدك إلى المقابر، وهل ستترك فيك هذه الأنياب لحمًا يعرف أو يحمل أو يدفن.

ما زالت عيناه تبحثان عن موته أرق من هذه وألين، فيها يغوص الجسد على مهل فى خدر عميق، يركض عبر التسابيع والتراتيل وتغوص الروح فى عبق البخور، ويرتوى من ماء الزلال وتلتئم الجروح الوسيعة، تدغدغه الأصابع الطرية وتأرجحات الطفل فى فروع الشجر وتشابك القهقهات وأنغام الطير ورقرقات الماء المتساقط، موتة بسيطة كوخز الإبرة فى سطح الجلد وبعدها يتخدر الجسد وتغيب الحياة وتختفى الأشياء، تتبعثر الذكريات والحكايات والأسماء، ألف جناح يمتد، طيور كالبخت ووجوه عذارى، إن الأنياب تلمع والحوافر تُسن على أسوار الغضب والتشفى واقتناص اللحظة وتدفق الدم ساخنًا من قربة لها ألف ثقب، يحدق بكل كيانه، يعدهم، ثم يخطئ، يلفون ويتقوسون ويحفرون، مخالبهم بدأت تظهر من تحت

عتبة الباب، تحفر بسرعة وعمق وإصرار، تزداد الأقدام طولاً والشعر يغطى الأرجل، والمخالب مناجل حادة، إيه يا (أبا الهوى)، ماذا تنتظر، افعل شيئا، حقق فراسة زوجتك فيك.

كشف كمه الطويل عن ذراعه والتفت مطمئنًا على التى رقدت فى وداعة وراحت فى نوم عميق، العصا التى تسند الباب من الريح والمجهول والقدر العاجل سرعان ما استقرت فى يده، لفت ودارت برجوع الروح وحب الحياة، حين انفرج الباب قليلا.. تلاقت العيون وارتفعت الظهور واندفعت الأنياب هائجة إلى فتحة الضوء، الفتحة الضيقة لباب هش وجسد ممتلئ وضوء شاحب.. خرجت منها العصا لتحط على أقرب رأس، قوية كانطلاق الطريد، صائبة ومدوية، غائرة بعمق فأس عفية فى أرض زرقاء، عوى الذئب واستقر هامدًا يئن، فاستدارت الظهور هاربة داخل المجهول، أخذت فى طريقها الخوف والوحشة والثعابين وطيور الليل واللصوص، فاستحال الوادى هياجًا بين كائنات تزحف وصراخ يتعالى ويختفى إلى الأبد.. فانفرج الباب عن آخره وتحسس النسمات الصاقعة تلسع وجهه عبر الظلام، قناديل الهيش تتمايل، شعاع اللمبة يصافح عن قرب شواشى الأشجار وفراشات مختبأة راحت تتقافز وتتطاير، وآثار مخالب الذئاب التى ولت، وذئبا تنزف دماؤه على التراب الرطب، تشابكت أنيابه وهمدت مخالبه واتسعت عيناه الميتتان أمام الخلاء، الذاهبون هناك فى النجع لصلاة الفجر لمحوا ضوءًا على حافة البِرْكة، فامتلأت الأفواه بفيض الذكر والتسابيح واندفعوا إلى المسجد.

والمتلاصقون فى مندرة الطوابين كبس عليهم النوم بعد سماعهم آخر خبطة مكتومة، فراحوا يتصارعون والنوم فى انتظار صباح سيهنئون فيه أنفسهم على موت العروسين.



الصباح الذى حط على النجع كشف عن الركب المستعد ليكتمل بالحاج الذى أركبوه الحمار وساروا خلفه، تتطوح الجلابيب والعباءات فتكنس الطريق المندى والتراب الرطب، وتخلف سعيد الطواب الذى حلف (طلاق تلاته) ألا يذهب معهم، عيناه تحتقنان بالدمع الذى يأبى أن ينفجر، من الأمس وهو يطوف فى البيت كأسد هائج، يضرب القطط المتطفلة والحمير المربوطة يحارب كائنات وهمية ويضرب أشباحًا لا وجود لها، يريد أن يصرخ وهو يتذكر رحيلها فى العصارى مخلفة فراغًا فى تجاويف قلبه، كان يراها فيترطب يومه كله، لا يكون اليوم طبيعيًا إن لم يبص من فتحة بابه ويراها تملأ الماء من البئر، تتدلى ضفائرها كحبال مجدولة كالليل، ويترجرج لحمها المكتنز، ربما غنى موالاً قديمًا أو ألقى صباحا عابرًا دون انتظار الرد، ولكنه تعود أن يراها، حتى عندما تخلف ولم يستجب لنداءات تستعجله، لم يندهش الحاج، بل قال وهو ينخس الحمار بقدمين متعبتين وعصا عوجاء:

- سيبوه على راحته.

الحاج يدرك كم الحسرة التى تتعقب فراره اليائس، ربما أنكفأ تحت أقرب صفصافة وبكى، لا يريد أن يراها على هذا الحال، العظام متناثرة والشعر مفرود على التراب والفم مفتوح بألف سؤال والعينان تبصان إلى السماء البعيدة وبقايا أصابع مفرودة بامتداد اليأس، كانت فى قلبه تنمو كنخلة، يتدلى سباطها على تعاريج الضلوع، منذ كانت صغيرة حين يقف أمامها بحصانه الذى باعه فى سوق السبت، يخيفها بهزات الذيل ولسعات الشعر وصلابة الحوافر، يحوم حولها ويدنو بأغنياته، فتلتصق بأقرب جدار وتصيح فيه:

- دمك تقيل يا سعيد.

يحب أن يسمعها فتعلو ضحكاته أمام العصافير وتطوحات النخيل.

حديث النسوة الذى دار بينهن كان معظمه عن تقسيم ملابسها

وذهبها وحجرة النوم، ووعدن الحاجه بملابس أم بدور التى لا زالت على حالها فى الدولاب المغلق.

- أنا ياختى مقدرش أشوف منظر العضم والدم.

- خليكى بعيد، أنا ياختى أشوف وأتشفى.

لقد كلف الحاج من سيقوم بالتبليغ وفتح المقبرة التى ستدفن فيها، همس مخلوف الطواب:

- طيب والكلب ده يدفن معها؟

- لا لا طبعا نرميه فى مدافن الصدقة.

الشمس التى رمت ظلال الأشجار على الطريق وداس عليها العيال، كشفت عن امرأة تحمل جرتها وتدخل الحجرة.

عندما رأوا ظهرها تلاقت عيونهم الزائفة وتبخرت الأسئلة وتدشدشت الرؤوس تحت مطارق المفاجأة، بلعوا غيظهم وعدلوا من وضع عمائمهم واقتربوا..

آثار معركة ليلية وحوافر لحمير ونعام وذئاب وحيوانات ليل خرافية، لقد رفعوا رؤوسهم من على التراب وآثار المعركة لتعقد ألسنتهم الدهشة وهم يرون ذئبًا بحجم العجل معلقًا على الباب يتدلى رأسه المتهشم، ممزق البطن منزوع الكبد، ينظر بعينين منكسرتين صوب الأرض، جفلت النسوة والحمير والعيال وحملق الرجال داخل الحجرة، المرأة الجالسة على الحصير المهترئ تعدل من ثوبها، و(أبو الهوى) المتكئ على جوال البطاطا يعتدل ويقوم على مهل:

- يا مرحبا يا حاج.. تفضلوا.

البنت تعدل من كحل عينيها وتتأمل فارسها وتطلق زغرودة ملء الدنيا بلسان قادر على الحديث والغناء وقول كل شئ إلا كلمة (تفضل يا عم).



قال لها:

- لا الفلاحة كارى ولا الأرض أرضى.

فمالت عليه بنت الناس ودثرته بدفء السنين وحنان الأم:

- أزرعها وتبقى لنا.

يلملم عظامًا نخرة ويضعها فى كفن ويدفنها، ثمة ارتعاشة تحتويه فيترطب القلب وينداح الحنين فى ربوع الجسد المنكفئ، بكاء لا ينقطع وحنين يتامى كأشجار الصنوبر، حين تقبض اليد على بعض العظام الأدمية، لماذا يقبلها بكل هذا الحزن والشوق والفرح وهو ينهنه كطفل ويئن كجريح بألف حربة، أحاسيس تتداخل، والمنكفئ وحيدًا بين تلال الهيش يكاد يتخدر، والشمس تتدحرج وراء النخيل البعيد ونهار يكاد ينتهى وهو يضم العظام البالية إلى صدره، تتداعى إلى ذهنه الأسئلة والحكايا والمواويل ونداء يهمس فى أذنه فى عمق الليل وهو يسلمه لذاك الغريب:

(كشفت حليمة على خد النبى نور........)

لماذا يتمرغ الآن على جذور العشب ويود لو يتخلى عن وقاره ويتقافز كطفل، يسرع وسع الخطى حيث هناك على حافة الوادى ينزل فأسه بعمق الفرحة ومدارات الكنز عن عيون الأعادى، حفرة يطمئن أنها تمتد بعمق الزمن وراحة الجسد المسجى، يطمئن أنها معه الآن حتى ولو كانت مهشمة ولو كانت بلا ملامح، إنها عظام تتشكل على هيئة أحرف وخرائط، توصل منه ما انقطع وترتق ما تهلهل من أيام عمره، يهيل التراب ويغطى حفرة لا يعرفها أحد سواه، يجلس متسندًا على أوراده وفيض الأدعية، تدمع العينان وينطلق اللسان ويردد الطير هذى التسابيح الخفية.



يحكى ابن زكية العرجاء عن بنت كالقمر تحمل تلال الهيش على رأسها فتتجلى الأرض عن (أبى الهوى) وهو يحصد بمنجله ويقلب بفأسه ويغرس بيده بذورًا مختلفة وحبات بطاطا وفسائل نخيل وغصون موالح، يكشط العرق ن جبهته العريضة ويغنى بصوت رطب. فتعتدل الظهور فى مندرة الطوابين من على التكايات وتضرب الأكف بعضها، ويرشف ابن زكية العرجاء من الخدود الناعمة، فتعزف مصمصات الشفاه بالداخل: (عشنا وشننا).

مخلوف الطواب يعدل من عباءته ويوجه كلامه إلى الحاج:

- بكرة نقعد على الحيطة ونسمع الزيطه.

فيبلع الحاج المجاملة على مضض ويروح فى صمت عميق.

***

- كنت فين يا أبو ستيته؟
- كنت فى بستان أبى الهوى.

الناس ينفضون أيديهم من عمل النهار وقسوة الشمس، تحتوى الترعة أجسادهم العرقى، يدعكون جلودهم على عجل، ويرتدون ملابسهم المكومة على الشط ويلاحظون شمسًا مالت ناحية الغروب، يجمعهم الجسر الملتوى والحكايا المعادة، تتسابق أرجلهم فى خفة النسانيس صوب البستان الممتد حد الشوف والوجه الآخر للتلال التى كانت تكبس على القلوب بثقل الهم والخوف، فيقعدون ويشربون الشاى أبو نعناع ويتفرجون على بستان (أبى الهوى) الذى أصبح جنة الله فى أرضه، فيكوم أمامهم أعواد الخص وأصابع البطاطا والفول الأخضر ويعدهم بملء حجورهم وبطونهم عندما تثمر أشجار الموالح، تنساب المواويل ندية وتطحن الأفواه الخضرة والحكايا، تتبدر الضحكات فيشتعل المكان

بهجة وترتفع صيحات الاستحسان ويتأملون فراء الذئب المحنط يتدلى على باب البيت الذى ازدادت حجراته وأوشك البناءون من إتمام (مندرة) كبيرة كانت تشرف على اتساع نوافذها وعلو بابها، تتحسس بنظرة خبير كل ركن فيها وتهمس:

- زى مندرة أبوى الله يرحمه.

آن الأوان ودنا القطاف وتدلت الثمار مبهجة كالعصافير، والعيون لا ترحم والمكان كان مأوى لأشباح ومردة ومجهول، والأرض تخبئ أكثر مما تظهر، والإنسان يتعثر أحيانًا فى حجر فيسقط مفزوعا، ربما بين أحضان جنية أو أظافر شيطان أو أنياب شبح.

ليلة الذكر التى ستطرد الأشباح وتعبئ المكان بالود والبركة وتفقأ العين الحاسدة، هى التى أشارت عليه بها، حين رشرشت البخور والشيح والتراتيل على الأشجار الممتدة من موالح ونخيل وكروم عنب، تلف وتدور وتقف بمجرة البخور على رأس (أبى الهوى) العارى (رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك ولا صلت على النبى) فيضحك الرجل ضحكة خشنة تجلجل فى المكان ويحمر الوجه وتنعس البهجة فى عينين مغلقتين على سعادة لا تنتهى.

أبو ستيتة يصيح فى الدروب، يدعو الناس إلى ليلة ذكر فى بستان (أبى الهوى)، ستمتد حتى الصباح، كلوبات ومداحون من البندر ولحم عجل سمين سيكون فى متناول الأيدى.

مخلوف الطواب مسحوب من لسانه، يهمس لعمه:

- مش هتروح يا حاج؟

كان مركوب الحاج قد استقر فى وجه مخلوف الطواب، فاستاء أصحاب العمائم والعباءات والدم الواحد وغادروا المكان فى صمت.



كشفت حليمة على خد النبى نوّر فرحوا الصحابة وقالوا جمعنا نوّر

لك جوز عيون سود جل الذى صور لولا وجود النبى ما كان القمر نور(*)

صوت (أبى الهوى) يخترق الحجب ويجلجل فى فضاء الله، فيحث الراكبون حميرهم على السير ويهيلون تراب الجسور، تحلق الأرواح فى بحار الوجد ويجذب المدد الآتى من تدفق الأنوار وترنيمات الحور وكؤوس الولدان وروح وريحان وأبواب تفتح، أرواح تحلق، أجساد يغسلها التطوح حتى التعب وهيام القلب، تفكك الأوصال والخروج من جحيم الهم وقسوة الأيام وانحناء الظهور طيلة النهار تحت سياط الشمس، وكرابيج الملاك وغز الجوع فى بطون منهكة، وهرس حبوب الذرة بين طواحين الأضراس، وفحول البصل تعبئ تجاويف الأفواه، وشوق الوصول، وحب الرسول، والتمسح بالبيارق، وترتيل الأصوات الخشنة رقيق التوسل والمناجاة، وشرب كأس المحب جهارًا لا حجاب ولا ستارا، وفرش الروح تحت أقدام المحبوب، والفوز بالمطلوب، وأرواح تتلاصق فى حضرة الذكر لا غالب ولا مغلوب، ترق القلوب الوجلة فتتسمع غمغمات الطير فى رحاب المدى ورقرقات الماء الجارى وحنين لأنين الناى وهبوب المسك مع نسائم الصيف، تخبط الأرجل بطون الحمير وتنهمر العصى على الرقاب والآذان والذيول، فالقلوب تهفو والأرواح تهيم ونداء الداعى يتنامى فى الأفق، إنه صوت (أبى الهوى) الذى اختبأ بين المداحين وأطلق أجنحة للمواويل الساكنة فى بنانى القلب، فانطلقت مع تطوحات البيارق ودفوف المداحين والقصاقيص الملونة، وسبح الكهرمان، وعصى الخيزران، وجمال الكسوة العابرة نحو الكعبة، تحرسها سيوف البدوى والشاذلى والرفاعى والبيومى والدسوقى، تخشع الأصوات فلا يسمع إلا حداء الركبان

(*) من التراث الصوفى.

يتهادى بين التلال وجريد النخل وحمام الحمى والطيور الخضر وعيون تحن وقلوب تئن، وانطباع أخفاف الجمال فى الرمال الناعمة، وحزب النصر فى حميثراء، وكؤوس ليلى، وقمر العاشقين يطوف فى صحاف الفضة فيروى الأفئدة الظمأى.

إي ي ي يه يا لغريب:

من سواه الليل والويل ووحشة البعاد وطول السهر وثقل اللحظة وقلة الرفيق وشتات الطريق وذهاب الأحبة وعودة النفر من وحشة غربته إلى فضاء الخص. فلا يد تكفكف الدمع ولا آذان تسمع الشكوى، وظلام ثقيل يبرك على الوحيد فى الخلاء بهسيسه وفحيح الأفاعى، وانطلاق بنات الليل، وأخفاف عيال الجن حين يهيلون التراب، وقعقعات ريح الخماسين تدشدش باب الخص وبوصه فتعريه أمام الخلاء والنجوم والعيون المتطفلة.

كل هذه الأشياء عبأته بالمواويل والحكايا، حين يبص الوحيد من بين ركام الكوابيس ومروق الفئران وطلقات تشرخ صمت المدى، وجحوش تهيل التراب، وصبح يضن بطلوعه، سيكشف عن الجالس ملتحفًا الفراغ الأبدى رافعًا يديه إلى مؤنس وحدته وراحم غربته ومقيل عثرته. تنهمر الدعوات والتوسلات والدموع فيمتلئ القلب بالسكينة والمدى بالنور، لقد عرف طريقهم منذ مدة عندما رنا إلى وقع الدفوف، كان يظنه فرحًا سيرقص فيه للصباح، ولكنه وجد نفسه فى مواجهة عمائم تتطوح وبخور وذكر وتأوهات وضربات أرجل المجاذيب وعينين لشيخ تبصان من صحن نور، وإصبع يشير إليه، كأن ألف يد تجذبه، بكاء بلا سبب، وعينان تجودان بدمع سخى وقلب يترطب ودفء يعم المشاعر، ونسيم يتدفق فى صحراء النفس الخاوية، حين تمر يد الشيخ على جبهته يتفصد عرقًا ويلهث ويضطرب وهو القوى، كأنما استحال جسده قطعة من عجين، والشيخ يعبئه بالتراتيل والأحزاب والأوراد، يعطيه العهد

ويعصب على رأسه بقصاصة ملونة. لقد عاد إلى خصه مشحونًا بفيض الذكر، كأن آلاف الأجساد تؤنسه، حين نخسه الشيخ بعصاه وقال: امض...

من يومها يصحو على وقع الدفوف والطبول والمواويل، يمتلئ القلب بفيض العشق، آخذًا فى الترقى وشفيف الحجب واحتمال الأذى وهرس الحصى ولعب العصا وورود الورد وحضخل العهد، فها هو لا زال فى بستانه يراهم من تلافيف الغيب وغلالة الضوء الشفيف، قادمين على أحصنة وسرج مطرزة، رايات خضر تهفهف فى المدى ونسائم مسك وزغاريد، تتفتح أبواب البنفسج وخضرة لا نهاية لأطرافها، وكأنهم يقصدونه حين جاءوا إلى هنا، تحيطهم الغلمان وأيادى ترتفع فيصرخ أبو الهوى بكل كيانه:

- مدا ا ا ا اد.

ويتمرغ فى تراب البستان، يقبل أقدامًا ويتشمم رائحة المسك ويتمسح بالسرج القطيفة ويدهن وجهه بلمسات أناملهم اللينة، فيتندى القلب طراوة وخشوعا، ينهنه كطفل، لا يكاد يُصدق، يود لو يتخلى عن ملابسه ووقاره ويجرى فى الخلاء راقصًا كالطاووس، يا للفرحة التى تكاد تفجر الجسد المتوهج، جاءوه هنا، يا لنصرته وفرحته، فلتذهب الدنيا إذن، إنها الكاسات تجلى، (مشعشعة لها نور عجيب، فيأبى القلب عنها اصطبارا)[1]، (وساقى الحميا عرج علىّ)[2] ونادى لا حجاب ولا ستارا، رشفة أو نقطة تصب فى الفم الظمآن، تطمئن حيرة الملهوف، فيتبدى الكون كنقطة، ويفهم ذلك الأعجمى لغز القلوب وأقفالها، فينساب صوته أمام الناس نديا:

---

(1) أبو الحسن الشاذلى.

(2) من التراث الصوفى.

يا سادتى ياللى تودوا الناس ودونى	**هاتولى دوا من كحيل العين وادونى**
قالوا تعدك معانا قلت عنونى، لكن	**يا سادتى على شرط بحر الخوف صدونى**
أسيادى لما لقونى موفى العهد ودونى	**فردوا البيارق وحلفوا لم يفوتونى[1]**

إنها المرة الأولى التى ترى فيها دموعه، تندهش من كل هذا الذى يخبئه ذلك الرجل، تدنو منه بعشق السنين وتهدهد الرأس المنكفئ:

- أبو الهوى.. وبعدين.. وحد الله وقم قابل ضيوفك.

يتأملها من خلال قشرة الدمع صافية كالنسيم، رائقة كالحليب، يجفف دموعه ويطلق تنهيدة بوسع المكان ويمضى صوب الوفود القادمة.

⁂

أمام فرن الطوابين يتزاحمن النسوة بلا فائدة من أجل حديث بائت والشاى الثقيل، وعرائس الخبز المحروق تملأ أيدى العيال، ودخان يغطى السطوح محملاً برائحة الخبز والضحكات ومصمصات الشفاه، وتناقل الأيدى فوق المطارح والتصاق البتاو ببلاط الفرن ورشرشة العيال فى ماء الزير.

- ما كانتش خاطية يا ختى لما حبت.

والحديث عن (بدور) يستدعى الزمن الفائت والعمر الذى تسرب وجرأة البنت التى استطاعت أن تشق عصا الطاعة وتنسلخ من ذل الكرابيج وتأخذ طريقًا مستقلاً ليس فيه الحاج بقسوته، وإشارات أصابعه الآمرة، وطلباته التى لا تنتهى بدءا من الأمر ببيع بقايا القراريط وتطليق النسوة وسماع صراخهن خلف الأعتاب، يستجرن بجدران عالية ويتأوهن تحت لسع العصى والأكف والشتائم

(١) من التراث الصوفى.

الحارقة، وانتهاء بغسل المناديل الكالحة والسراويل المتمزقة ومسح أرضية المندرة الخشبية عشرات المرات فى انتظار فرج لا يأتى وضيوف لا يحملون أسباتًا وهدايا، فقط هم الدائنون يطرقون الباب ببجاحة ويحتلون المكان بوسخ حميرهم ويكبسون كالهم على الطوابين الذين يتهربون داخل الحجرات ووراء الجدران تاركين أمر التصرف في يد الحاج، إما أن يؤجلهم أو يزيد فى الربا أو يرهن لديهم مصاغا لإحدى نسوة الطوابين أو يشير إلى بنت على وجه زواج لتكون زوجة أحد أبناء الدائنين، أو بعض العروق الخشبية تنسلت فى الظلام وتُحمل كالنعوش إلى بيوت الدائنين، مخلفة فراغا فى الألواح الخشبية، يعدونه العيال فى الصباح، وتتأمله النسوة فى حسرة ويتحاشى الرجال النظر إلى سقف يتجرد من عروق تحمله، فيترجرج، ويخر التراب، ويتقوس فى سقوط وشيك، فالنسوة الجالسات أمام الفرن قد تبادلن المواقع منذ الصغر ولم تستطع واحدة منهن أن ترفض عريسًا أو تقبل آخر إلا بأمر الحاج، يدارين غيظهن ويكتفين بالطبطبة على ظهور عيال تتقلب فوق حُصُر متهالكه، ورجال خرجوا إلى بيت فوزية ولن يعودوا إلا آخر الليل، لم تبق إلا كلمات المجاملة للحاجة التى جلست تتابع عملية الخبز ووضع الماء بحرص فى المواجير والحفاظ على العجين من أيدى العيال، وسخونة نار الفرن، هن يجاملنها من أجل (رَصْ) خبز يقسّم عليهن، بالكاد يكفى عمل (مفروكة) للعيال التى جف عودهم وذبلوا منذ أن تركت بدور البيت.

- ما كانتش خاطية - طب كانت اخدت واحد من رجالة الطوابين، هم قليلين؟

امرأة مخلوف الطواب تخبط بعنف على العجين وتكتم غيظًا ياكل فى صدرها.. تصيح فيهم:

- ياختى القلب وما يريد، هى كانت شافت منا يوم حلو، من

ساعة أبوها ما مات واحنا ناكل فيها أكل، حتى إيجار الأرض يا عينى مش طايلة منه حاجة.

حين صرحت بذلك للحاجة وعلى جمع قد اكتمل من نسوة الطوابين اشتعل الغضب فى صدر الحاجة أقوى من نار الفرن، فصوبت بصقة إلى وجهها، مسحتها وأسرعت إلى بيتها ووراءها باقى النسوة حانقات تاركات العجين على حاله والنار تتأجج فى فرن متقد.

***

اللاتى ذهبن متخفيات وفرادى، جمعتهم الطريق والظلال والسير المتعجل حيث أشجار البستان تبدو واضحة ملء العيون، تاركات الجرار على حافة البئر والمواعين على الموارد والعيال يمزقون جلابيب بعضهم فى شقاوة ويملأون حوش البيت بالضجيج، ما الذى لم شملهم على الطريق؟، أهو الشوق إلى البنت التى تركت لهم الجمل بما حمل والنخل ببلحه والبيت بحيطانه وعزًا كانت تتمرغ فيه؟ أم أنها استطاعت أن تفعل ما لم يستطعنه؟ ما زالت بصقة الحاجة محفورة على وجه حسنية زوجة مخلوف الطواب، تمسح آثارها بالطرحة وتعرى عن رأسها تحت الكافورة وتدعو على البيت ومن فيه وأن يذلهم الله أكثرمما هم فيه من ذل وأن يريها فى الحاجة يومًا أسود، يرطبن النسوة من هياجها ويجففن دموعها ويتحسسن مواضع العض على أجسادهن وسراويلهن المتمزقة والأثواب التى ما فارقت الجسد منذ أن مشت بدور، والمش الذى حرق الصدور، وبتاوات تجود بها الحاجة فى كل خبيز، تنادى عليهم واحدة واحدة، اسمًا اسمًا، توزع عليهن بالعدد بتاوات لا يكفين العيال مفروكة، تعلم أن الرجال يغيبون ويعودون طول النهار مملوئى البطون من تزاحمهم فى الأسواق وشهادتهم زورًا

وحشرهم فى بيوت الناس يوقعون الفتنة بين العائلات. طمس الله على قلوبهم وهدل أجسامهم، ورغم ما هم فيه من ذل يرفعون رؤوسهم المنكسرة ويرفضون العمل فى أراضى الناس التى كانت أرضهم وباعوها على السُكْر والنسوان، ينتظرون نساءهم على طرق الأسواق ليأخذوا نقود البيض وبيع الدجاج والإوز. حتى ثمن المحصول من أرض بدور لا يعرف أحد كيف يتصرف الحاج فيه، أول الموسم جلباب كستور لكل امرأة وعيل، وجنيهًا لكل واحد من رجال الطوابين.

(وخدى شيلى دول يا حاجة) والحاجة بئر عميق، الداخل فيه منتود، أرطال اللحم تأتى كل خميس والنار تتأجج، والحاج يلقم ويدهن شاربه الأبيض ويغسل فمه على حافة البئر وينهر العيال وهم يلتهمون عرائس الخبز المحروق وكور المفروكة، تظهر عوراتهم مكشوفة تحت ملابس بلا سراويل، ويتجشأ ملء الحوش ويرمق النسوة الجالسات فى مدخل الباب بنظرات ساخطة ويمضى حيث الحاجة فى انتظاره تدلك له أرجله المعصعصة ويستعيدان سويًا ذكريات متآكلة الملامح وينامان على فرش لدنه مستسلمين لظلام شاحب وليل طويل.

نهنهات لا تنقطع، وبقعة الظل امتلأت بنسوة الطوابين، وجوه بيضاء ملفوفة بالطرح، وكعوب متوهجة كأنصاف أقمار تسكن نعالاً مهترئة، وأجساد مكتنزة ما أحناها العوز أو هدلها الجوع، وموكب النسوة يمضى متعجلاً، يبدرن الحكايات والذكريات، فتسمع أعشاب الجسور والأشجار السامقة واليمام والزرازير، تتجلى الابتسامات من اسنان سليمة وشفاه كالجمر وأياد تطرق متعجلة على باب البستان:

- افتحى يا بدور.

بنت الأصول قلبها من لبن مصفى، يتجلى وجهها المشرق عن

بسمة ملء المدى، تنهيدة فى الفضاء الوسيع، وذكريات مؤلمة تتكسر تحت حنين العناق، ينمو الفرح كشجر التوت، والباب ينفتح على آخره.

- من يومك قلبك طيب وعمر الدم ما يبقى ميه.
- ....
- يا أختى المسامح كريم.
- ....
- سامحينا يا بدور.
- مسمحاكم بقلبى قبل لسانى.

تتابعت الصدور المكتنزة وتلاقت، وتعانقت الشفاه مع الخدود وشهقت الحلوق، ودمعت الأعين وفُرد الحصير الجديد على آخره، فتلاحمت عليه الأجسام والأرواح والذكريات وأيام الحصاد وتسلق أشجار النبق وإلقاء الحجارة فى البئر، وجر عصا الحاج العوجاء على التراب، والاختباء خلف النخيل، وفتل الشعرية على أعواد الهيش، وفرك الكشك وسرب القمح فى شمس الشتاء الدافئة، وشد ذيول المعيز وركوب النورج والجرى وراء الفرس الصغير والضحك على قلال الجمال وكشط رسوم الجدران ولملمة البيض من تحت الدجاج.

- فاكرة لما كسرتى البيض وكنتى خايفة؟
- والنبى يأمينة فاكرة وأنت قلت أنك أنت اللى كسرتيه والحاجة شدتك من شعرك.. ا ا ا اه من يومها مفتريه.
- إحنا قلنا إيه.. دى لو عرفت إن إحنا جينا هطين عيشتنا.
- أيوه.

فى المندرة المغلقة تأتى إلى أسماعهم أصوات رجال تتزايد، يميزن من بينهم صوت سعيد الطواب ومخلوف الطواب وزكى الطواب

ومعظم رجال الطوابين، كانت الشمس قد طلعت عليهم هنا أمام مدخل البستان حيث تلاقت أيديهم تطرق على الباب مستعجلة مَنْ بالداخل، ليُفتح الباب والأحضان والمندرة وصدر أبى الهوى.

- يوه ياختى.. مش دول رجالتنا؟

- أيوه من قبل طلوع الشمس فى المندرة يحكوا ويضحكوا مع الراجل وكأن اللى جرى ما كان، هو انتم ما تعرفوش، د أبو الهوى حالف ليدبح خروف.

وتتركهم لحظة وهن غارقات فى اندهاشهن. يعدلن من أثواب قديمة ويزحزحن الطرح عن جباههن المعروقة ويرسلن نظرات بعاد تتكسر على جذوع الأشجار المتعانقة فيرتد الطرف متعجبًا وتتوه الكلمات.

- أبو الهوى....

صوت البنت لا زال نديا، يخترق الباب والعمائم والقلوب، هى المواجهة إذن، تزوغ العيون وتجف الحلوق وتبحث الأذهان عن كلام يقال فى مثل هذه اللحظة، ثقيل هو الاعتذار، إنهم فى شموخهم الكاذب لا يعتذرون لرؤوس العائلات، فكيف لبنت من بناتهم وامرأه من نساء الطوابين، طاحونة بالنهار ودابة بالليل. ما الذى يكسر نفوسهم هكذا، وهم الذين ما تألموا لحرق حرقوه أو قتيل قتلوه أو بيت سرقوه، لقد سُدت المنافذ أمامهم، وأصبحوا يتكشفون أمام الناس، والرجل الغريب لا زال لغزا، والبستان حكاية الناس على المصاطب وفى الغيطان، والبنت ما أكلها الذئب، والحاج على عهده، والدائنون لا يفارقون الباب، والنسوة تتكشف أفخاذهن تحت ملابس متمزقة، والنفوس تأبى العمل فى غيطان الناس، والأرض التى تملكها بنت العم ولا تأخذ إيجارها، غلالها لا تكفى البيت الذى امتلأ بالعيال، والحاج لا زال يلتهم الإوز واللحم خلسة ويغسل يديه على حافة البئر، والدوار الوسيع

تسللت معظم عروقه وأصبحت المقاعد لا تُمسكن خشية السقوط، والنسوة بتن يتأبين عليهم ويعطيهن ظهورهن طيلة الليالى، مؤلمة هى المواجهة، وبنت الأصول المعبأة بحكمة أبيها الذى كان لا يهتك سترًا ولا يرد سائلاً ولا يمنع خيره عن أبناء إخوته وإخوته والجيران، تنظر من الباب الموارب وتشحذ سكينها الحامى على حجر الجدار وتدخل مندفعة إليهم. تسلم عليهم بدفء السنين وطراوة القلب وانسياب خيط الدم فى العروق، فتتجلى الوجوه حمراء تحت العمائم وتصافح الأيدى وترحب الأفواه:

- أهلاً بنت عمنا.

تسلم عليهم بثقة وتطرد عن وجهها بقايا أحزان ومكائد دبروها، تصارع نفسها آلاف المرات وتدارى حيرة اللحظة وتطلق زغرودة ترددها النسوة الجالسات تحت شجر البستان، هى لا تعلم لماذا أطلقت هذه الزغرودة، أللترحيب؟ أم للإنتصار؟ أم للشماتة؟ هم ابتهجوا والنسوة تتواصل زغاريدهن والطير يحلق من شجرة إلى شجرة، ومن شفتين ما زالتا ترتعشان بعد الزغرودة تنادى (أبا الهوى):

- قوم علشان تدبح الخروف.

تتكئ الظهور على المساند وتتجرد الأكتاف من العمائم وتُسن الأسنان فى تجاويف الأفواه وتخرج الضحكات من عمق البطون والصدور، وتحدق العيون فى سقف خشب جديد به بعض عروق انتقلت فى أنصاف الليالى وبيعت، هم يعرفونها وكأنها جزء منهم، باهتة يكسوها الطلاء المزخرف، فكأنما هم الخيل تكبحها اللُجم، إذ يتأملون أرضية خشبية تدك تحت قدمى (أبى الهوى) الذى أنام الخروف على عتبة الباب وكبر وجز عنقه فطرطش الدم على الجدُر والخشب ونعال الجالسين.

النسوة يشمرن عن أذرع بيضاء، وبخفة وعشم وشوق يقطعن اللحم وأعواد الملوخية والطماطم ويوقدن النار فى جانب من

البستان، يعلو الدخان ورائحة المرق وضحكات النسوة تصل إلى مسامع الرجال فى المندرة وهم يلوكون مجدًا زائفًا ويتأملون الذئب المتدلى أمام الباب ويناشدون (أبا الهوى):

- سايق عليك النبى تحكى لنا حكاية الديب.

فيكشف عن كمه العريض ويصيح:

- سمعونى الصلاة على النبى.

ويقوم على مهل يمسك عصاه ويقترب من الباب ويمثل أمامهم كيف ضربه، فتتسع العيون المندهشة وتنطلق الحناجر:

- سلم يمينك يا أبو الهوى.

الأكل حلا والضحك علا والشمس مالت صوب الغروب والحاج فى البيت يضرب كفًا بكف من شقاوة العيال وفراغ البيت من النسوة والرجال، البطون امتلأت والأيدى حملت ما تبقى.

- خدوا الباقى للعيال.

- يعنى ناكل ونتقل زى القطط، ربنا يسترك دنيا وآخرة.

لأول مرة يجمع الطريق كل عائلة الطوابين. الأفواه ما زالت تتلمظ والشوارب مدهونة والبطون ذاقت لحم الزفر، والنسوة ينظرن من تحت الطرح، ستستدير الظهور وتفك الضفائر ويطرطش الماء فى طشوت النحاس، يدك مخلوف الطواب الجسر بقدمه ويرتفع غناؤه أمام العابرين.

فتنهمر ضحكات النسوة وأسئلة العابرين:

- كنتم فين يا جماعة؟

- كنا فى الصباحية.

تنخفض الأصوات المبتهجة كلما اقتربت من الدوار، وتتحسس الأيدى منابات اللحم المكومة فى الصدور، وعيال الطوابين

يتركون ألعابهم ويقتربون من أمهاتهم بأفواه مفتوحة كالذئاب.

***

- إيه حكايتك يا أبو الهوى؟

كدر الكلام يعكر صفو الليالى، والهم عاصف كالريح حين تدشدش الخص، يغلق جانبًا فتتفتح جوانب، ويزيح همًا فتكر عليه تلال الهموم، المضروب فى قلبه سعيد الطواب لا أحد يحبه ولا هو يحب أحدا، تغلغل الغل فى قلبه وطفح على وجهه، فيستطيع من يجالسه أن يكتشف من خلال عينيه الزائغتين ووجهه الذى تكرمش قبل الأوان ودمه الثقيل الذى يقطع الخميرة من البيت.. مدى خبث هذا الرجل. يأتى دائما وحده بعد الجميع متلصصًا تسبقه أذناه، فينقطع الكلام ويحل الهمس، ويدرك مدى ثقله، فيدحرج نكتة لا تضحك أو سبًا فى عرض، أو كذبة أحكم رصها (وتزويقها) ولكن فضحه وجهه الكاذب، بدور لا تريده أن يدخل هذا البستان أصلاً ويجلس بين الساهرين، فما فعله من أكاذيب وتلصص ومكائد لا يزال يدبرها، جعلت سدًا منيعًا ما بينه وبينها، هى فى بيت رجل الآن ولا يستطيع أن يرمى عليها كلامًا أليما ولا يبص من ثقب الباب ولا يكشف عورته متعللاً بالاستنجاء جوار البئر، ولا يتسلق جدارًا ليبص عليها وهى تستحم فتخونه قدماه ويسقط صارخًا، ولا يرسل فى أعقابها دائما ابن زكية العرجاء فيطأ قدميه فى أثر قدميها، إن الذئب المعلق ليفقأ الأعين ويجعله يدير السؤال فى رأسه ألف مرة، فرجلها لايسكت، حين يثور يكون كجمل هائج، هو يصبر فقط من أجلها ويتحمل مر كلامهم ويبدر أمامهم أنواع الثمار والأطعمة، ويقرضهم ولا يسترد النقود ويغالطونه ويظهر أنه متناسيا، فهو يترك من أجلها الكثير، كما تركها تتصرف فى أرضها كما شاءت ورفض أن

يدخل مليمًا إن كان يصل أصلاً إليها إلى جيبه.

فى أيام الطفولة حين كان يشاكسها ويشدها من فوق الفرس ويمزق ثيابها الجديدة، تشتكى لأبيها والدموع أنهار تجرى على خديها الورديين:

- الواد سعيد يابا قطع الفستان.

فيعض على فكين خاليين من الأسنان ويهمس:

- منجوس زى أبوه.

كان أبوه بدران الطواب ألعن منه، حيث كان يسرق الفلال محمصة من على بلاط الفرن ويذهب بها إلى بيوت الغوازى، وكان يتسلق الجدران متلصصًا على نساء إخوته، وكرباج الطواب ما طاله، فقد كان يبيت الليالى خارج الدوار ويعود فى الصباح مهدلاً ليأكل ويسرق ويأخذ، كان بجعًا لحد الفظاظة، لئيما، وكان عقابه أمر، حين مات عند إحداهن مسمومًا بدم الحيض، فخلف الثأر والعار وطأطأة العمائم، ربما حكى لها كثيرًا عن الطوابين، ولكن الألعاب بعثرت تلك الحكايات والذكريات فلا تحتفظ منها إلا بالقليل.

(وايش حشر سعيد فى النساوين)

يترك المندرة والرجال فى الخارج ويدخل متعللاً بملء كوب أو تغيير ماء الجوزه أو أكواب الشاى، يسلم فتسحب يدها بغيظ من كبشة يده وغمزات عينيه وآهات قلبه المشتعل، وتبصق فى الأرض وتتجه إلى النسوة.

- إيه حكايتك يا أبو الهوى؟

مرة ثانية، سؤال سعيد الطواب دلق الماء البارد على رؤوس الجالسين فى مندرة (أبى الهوى)، وحول دفة الكلام، فاتجهت الأنظار إلى (أبى الهوى) وسكتت طيور الليل عن مروقها وهدأت

أصوات النسوة بالداخل.

ركضت خيول الهم فى رأسه، ودحرجته تحت سنابك السنين، فراح يعصر الذاكرة ويتحنح فى تصنع معدلاً من صوته، يتململ مضطربا، ويكاد يهوى فى بركة ماء آسن، فالعيون تترقب، وعينا سعيد كعينى الذئب حين بص من فتح الباب، إنه يراهم الآن على حقيقتهم، الذئاب التى هربت جاءت ترتدى العمائم والعباءات والوجوه الكالحة. يأخذون وضع استعداد ويفتحون أفواهها كالكهوف، فى لحظة سيلتهمونه، هم الذين فرغت أيديهم من أكواب الشاى فدنوا منه بغل السنين وصوبوا إليه أصابع كالمخالب. إنها اللحظة التى ستتعالى فيها ضحكاتهم ويقودونه أمامهم خارج البيت، يجرونه من عنقه وسط هيصة العيال، فتتجاذبه الأيدى وتسحقه العيون الشامتة، ورجال الطوابين يرفعون الحاج ويريحونه على الظهر المنحنى، ينخس بعصاه العوجاء الرأس الذليل، ويلهب المؤخرة بالكرباج، فيتنامى الصراخ كأشجار سنط ويستعيد الطوابون هيبتهم فتتبدر الأعيرة النارية وتجول الأرجل فى بستان بلا صاحب، وتمتلئ الحجور والأفواه بناضج الثمار ونيئها، والنسوة بالداخل سيطفئن غلهن فى لحم المرأة العارية، يجردنها من ثيابها وينتفن شعرها ويفسخن أيدى طالما مدت إليهم الخبز والحلوى والثمار والنقود والحناء ولوازم الستات، يتركنها أمام ذئاب الليل التى ستعود قطعا، تلتهم جسدها الطرى وتتركها عظاما بالية تُدفن فى مدافن الصدقة، وتقسم أرضها على هذه الوجوه الواجمة التى لفحت بأنفاس حارقة وجه (أبى الهوى) المخطوف وعينيه الثابتتين على الذئب المحنط، يريدون الإجابة على سؤال يراودهم فى كل لحظة، هم يعرفون أصلهم وفصلهم وجدودهم وحدود أرضهم، وإن كان الزمان قد جار والقوالب نامت، فإن ذبلت الوردة رائحتها فيها، ويكفيهم أصلاً ونجعًا

يسمى باسمهم وساقية صدئة وبئرا عميقا ومصلى على حافة الترعة ورجلا كالحاج يدعونه فى مواعيد العرب ليدلى برأيه.

وأنت.. من أنت؟ يا من جئت كالقدر العاجل فأخذت البنت من بينهم، وبصقت فى سرك على عمائمهم، وألبستهم الطرح، وملكت وقدرت؟

الوقت وقتك يا رجل، أجب، خشخش ذاكرتك، حكاياتك، مواويلك، دعواتك الحنونة فى صلاة الليل، أحاديث العم عبده على ضوء القمر، مال للكلام يخاصمك، والوجوه والجدران، تطبق الدنيا على صدرك، قاسية كبرد طوبة، والحاج هناك فى مندرة الطوابين يقضم فى غيظه، ينتظر طلقات سترتفع وزغاريد وعيال يهيصون وكلوبات ستضاء ورجل يجرونه أمام الأعين منكسرًا كالنخلة المائلة. وكان الحاج وهو صاحب الحكمة والمشورة قد همس لسعيد الطواب:

- وبعدما تشرب الشاى يا سعيد والقعدة تكمل، تسأله وسط الناس.. إيه حكايتك يا أبو الهوى؟

يا ا اه... أيكون الرجل بهذه الحنكة، يصوب فى عمق الهدف، يعرف أن (أبا الهوى) لا يُحطم إلا من هذا الباب، ما الذى جرى، هل ذهب إلى مكان وسأل، إنه يتجول فى الأسواق ويجالس الناس، تراه ماذا عرف، ولماذا هذه الليلة بالذات، أيكون الكلام أقوى من العصا والفأس والطلقات الطائشة ما الذى يخيفك الآن وأنت الذى تصارع الليل والويل والذئاب والأسواق، نعيق غراب فوق النخلة الذكر يوقظ المجهول.

ألم يعلن الذاكرون حين تطوحت أعناقهم وعلا نحيبهم وربطوا حميرهم فى الحبل الممتد بطول الجسر، أنك بت ابن الأرض الزرقاء والأغصان المتشابكة، والمداحون حين رفعوا اسمك فوق شواشى النخيل، ألم يؤكدوا هويتك.

إن النخيل يشق النخناء والشجر تتدلى ثماره أمام العيون، كروم العنب والساقية وباعة يصحون مع النجمة يتراصون على بوابة البستان فى انتظار أن تملأ أجولتهم وأقفاصهم بفيض الثمر.

كل هذا وسعيد يسألك:

- إيه حكايتك يا أبو الهوى؟

مال هذه الأفواه التى التهمت خروفًا كاملاً، وداست أقدامهم فى أرضك المزروعة. وتلاقت أحضانك بأحضانهم، فشعرت أثناء ضماتهم الشديدة بحديد المسدسات يغز فى صدرك، ما لهم يكشفون عن حلوق حمراء تفضى إلى مجهول وتحيلك إلى عدم.

إن حمارك سيمضى وحيدا، يسرح عبر بلاد عبرت بها وخُص تهدم وبعثرته الرياح. ويتف فى بقع الأسواق التى خططتها بعصاك، ويحتمى بأشجار تظللت تحتها، وحين يكل من السير ويحل عليه الليل يرتمى تحت ملاءة الظلام، ليكشف الصباح من عظامه البالية، تتخطفها الكلاب، الحياة تنتفض بداخلك، وزوجتك يخفق قلبها وتعرى عن رأسها وتدعو مفرج الهم وفاتح الأبواب أن يلهمك حسن الخطاب والرأى الصواب ويكفيك شر الأعادى، يأتيك صوتها حنونًا يشد من أزرك، فترتفع الحجب عن رايات وخيل تركض ومسك يهب، سيوف تتلألأ وفيض من الزنجبيل يصب فى حلقك الجاف، تحضرك الأوراد والأحزاب والحكم والحكايا. أنت تواجه نفسك ألف مرة، حين يخطر ببالك ذلك السؤال، من أنت وما حكايتك ومن أبوك، عائلتك، من سيسأل عنك إذا مرضت أو مت أو جننت، ربما تراكمت عليك تلال الهموم والأحداث واستسلمت للوحدة وخططت طريقك بالعصا وآخيت القمر والنجوم والليل بهسيسه وبنات الأرض وأعشاب الجسور وحلق الذكر ودقات الطبول وأفراح البلاد وليالى السمر وفصال المشترين وحمارًا صامتًا يعرف الطريق إذا نسيت، كم من مرة تطرد ذلك

السؤال الذى يلاحقك من أعماق ذاتك، كنت تود لو تسأل العم عبده أسئلة كثيرة، ولكنه تركك والفراغ وذكريات تذوب مع مرور الأيام، حتى ملامح وجه الرجل نسيتها، فما أحوجك الآن إلى تذكرك اللحظات والأسامى والمكان والحديث ووصايا العجوز وهمهماته ساعة الإحتضار، كان سيقول شيئًا لولا الموت، وكنت تود لو تدرك لحظتها كل هذه الأسئلة التى تنهمر كجحيم يجتاح وقتك ويبدد سعادة اللحظة ويجعل اللقمة مريرة فى فمك ويخرجك من الجمع إلى الوحدة ومن حديث الناس إلى الولوج فى فراغ عالمك، تزاحمك فى الأفراح وليالى السامر ينسيك، ولكن موالاً واحدًا عن الهجر وميلة الزمن ولوعة الفراق وذل أولاد الأصول يجعلك تنكمش وأنت الضخم وتذوب وأنت الصُلب.

لماذا لم تسألك زوجتك طيلة هذه المدة، أهى تعرف شيئًا؟ هل توقن أن هناك جرحًا عميقًا سينفجر تحت سكين السؤال؟ لماذا لم تسألك؟ أمن أجل ذلك يتنامى حبك لها، تُرى هل سيذكرها هذا السؤال بشئ، لعلها لن تنام هذه الليلة حتى تسألك عن أهلك وبلدك وحكاياتك، علمتك السنين وقعدات الرجال أن تحكى ولا تمل، وأن تجد آلاف المخارج، فما الذى يكسر الكلام بآلاف المطارق، إن يدًا تطبق الآن على الحروف، وآلاف الحكايا تتوه، وسؤال خارج عن المألوف، لا هو بيع أو شراء أو زرع، ولكنه أنت، القلب على وشك السقوط وحبال المدد ممدودة وصراخك ينداح عبر دمك والشرايين، تضطرب كفرار مجذوب يتبعه طوب الصبية وقنابل التراب، يترطب الغناء فى داخلك:

(امانة عليك يا مريد يا للى فى النبى مدّاح   **هتلى خبر بدليل من زاوية الصُلاّح)**[1]

---

(١) من التراث الصوفى.

تنداح الحكايا أمامك جلية، مفروشة ونقية، تنبت فى داخلك كزهور البرتقال وعناقيد عنب، ضاحكات كبنات على وجه الزواج، ينتظم نفسك ويتجلى أمامك المدى رائعا، فتصيح بفرحة من وجد ضالته:

- يا جماعة أنا عاوزكم تصلوا على النبى.

يرشرش صوتك الدافئ السكينة عليهم، وتأمر الولد أبو ستيته أن يجدد ماء البراد ويعمل دورًا جديدا، فتتلمظ الأفواه وتتغامز الأعين ويعتدل الحاج هناك فى مندرة الطوابين ويأمر بتغيير ماء الجوزة، فتدلق زوجتك أمام النسوة داخل البستان قراطيس اللب والحلوى، تطحن الأفواه وتنصت الآذان:

أنا عمرى ما كنت ناوى على الشر، ربك كبير والمفترى عليه الله، فى حياتى ما ضربت حد فى ضهره

"ويخص سعيد الطواب بنظرة نارية"

الفرح سخن والطبل اشتغل والأيدين هات يا سقف، طلع من وسط الناس زى القدر، دار بعصاته فى الفرح وقال مين ينزل قصادى، مرة واتنين وتلاتة، ولقح كلام يخجل، العيون بصت علىّ، صراحه أنا كنت ناوى اطلعله من صفوف الناس، بس قلت اصبر ياواد، طبعا أولاد البلد فى ناحية والأغراب فى ناحية، النساوين زغردوا والفرح كله يبص على الغريب اللى هو أنا، غريب غمزنى وقال انزل، لفينا قصاد بعضنا، ندور بالعصا فرح وبنهنى، نرقص شوية وندور شوية، هو من أهل البلد وأنا غريب ومش عاطى خوانه.

"ويقصقص جسد سعيد الطواب بنظرة خاطفة فينكمش فى نفسه"

بصيت لقيته ضربنى فى جنبى، والفرح بتاع واحد غلبان حرام نفسده، قلت: عيب يا أبو العم داحنا ضيوف عندك، وكأنه

مسمعش، بص ناحية النساوين وراح ضربنى تانى، صراحة آنا نفسى صعبتْ عليا، رحت لافف ومناوله واحدة فى جنبه نزل يرف. الكلوبات طفيت وسمعت اللى يقول امسكوه واللى يقول جرى من هنا، وأنا من ساعتها ماشى فى البلاد سواح، أنا غلطان يا رجالة؟"

يميل أبو ستيتة ويصب الشاى الذى استوى ويوزع ويصيح:

- سلم يمينك يا أبو الهوى.

وتتناوب الأيدى مصافحة (أبى الهوى) الذى يجدد البيعة مع الزمن والحكايا والحياة التى لها بقية، وحماره الذى يتمرغ على التراب الرطب، وزوجته تودع النسوة والظهور التى عادت إلى البيوت تحكى وتعيد فيما رواه (أبو الهوى).

⁂

إن شجرة البرتقال تتسمع فى صمت أبدى، وتكسو (أبا الهوى) طلاً منقوشا، فأراح نفسه وتجرد من عمامته وانكفأ على حزنه، وهى توحى للعصافير بالصمت، فقد بدأت خيول الذكرى تركض فى دمه، تحمله هناك، بعيدًا عن البستان والنجع والأسواق، حيث تموج الأفكار فى بحار من زَبَد، لزجة وسلسة وعصية أحيانا، متكسرة الملامح الحكايا، بلاد متشابهة، وأشجار متشابكة، وطرق متشعبة، وأسطح وقباب وأبراج حمام وطيور تحط وتطير، وعينان بريئتان تصافحان مدى بكرا وبريق ندى ومصارف وزروعًا وشمسًا تبص من خلف نخلات بعاد، وهو الطفل ينكفئ ويعتدل ويصطدم بطوب الأرض وظهر الرجل المنحنى أمامه، يقطعان جسورًا ملتوية وأعشابًا شيطانية، يتعالى سعال الرجل ولهاث الطفل، يهش بيده ذبابًا لحوحًا يتعقبهم منذ جلوسهم حول الطبلية، يحوم ويحط على صحن اللبن والبتاو والوجه الغاضب لامرأة تركل الأشياء وتسب ناسًا وهميين وتنفخ فى نار الموقد، فيتصاعد مارد الدخان ورائحة

الشاى المحروق، وتبعهم ذلك الذباب بعد خروجهم من البيت ومرورهم بين البلاد وركوبهم المركب ومجيئهم هذه الأراضى.

ينادى الرجل من بين لحية خشنة وعمامة ثقيلة على الطفل الذى يتأمل خربشات العصافير على وجه التراب:

- امش يا ضناى هو آنا مكتوب علىّ الشقا.

ويضغط بحنو على الكف الصغير ويكمل:

- كله بثوابه.

يبدأ الماشى والراكب بالتحيه ولا ينتظر الرد، هو فقط يبص من خلال رموش غزيرة إلى بيت عال وسيع وأشجار كافور متلاحمة ويضحك للمرة الأولى منذ خروجهم.

- امش خلاص وصلنا.

يطوح الهواء الشجر المحيط بالقصر ويزيح الأعشاب فى فراغات الشوارع ويدفع بظهرى رجل وطفل، فيدنوان من الباب الموصد.

مال للأشجار حين تمايلت وبانت شرفات القصر عن قرب ونمنمات الخشب المحلى بالنحاس على واجهة الباب والسور المحيط يحجب أنصاف الأشياء.. دق لها قلب الولد وارتعش الكف الصغير فى حضن الكف الكبير، أياد تأتى من الخفاء تدغدغ بحنو جلده الرقيق فيسرى فيه النمل الناعم، معازف ودفوف ونسيم ينساب طريًا يتغلغل فى عمق الروح، والألوان تغمر الأشياء باتساع عينيه المحملقتين.

عصفورة حلقت من على واجهة الباب وولت صوب الأشجار، لحظات وانطلقت الشقشقات من بين فروع الشجر وأبراج الحمام والأجران البعيدة.

يتشمم الآن رائحة الصدر الذى كان يضمه والليل، وارتعاشة الحضن الدافئ ولفح الأنفاس المضطربة، وانزلاق الدمع المالح على حافة الفم، وهدهدات الجسد المسرع، والمواويل التى تحفر الآن فى

الذاكرة حفرة بعمق الزمن واتساع الجرح، رائحة الجسد لا زالت عالقة بأنفه، كقطعة طين لاصقة فى حافة الفأس، خارجة بدفء الأرض وجذور الأعشاب، نفس رائحة المكان والسور والأشجار والشرفات وهزهزات رأس العصفور حين بص وطار، الرائحة التى عبأته بالليل سبقته إلى هنا.

أتراه الحضن الذى تهدل بك من كثرة الجرى واللهاث والتعقب والخوف واضطراب القلب والقفز فوق القنوات والإنكفاء والاعتدال وولوج حقول الذرىْ وتلفت الحائر، حين أرتمى بك تحت شجرة الصفصاف، كان القمر نابتًا كثدى بنت وكان يبص من وراء فروع الشجر، فتهتز ملاءة الفضة على الوجه المنمنم، يتجلى نديًا ولامعا، عينان من شوق وخوف ولهفة واحتواء تمسحان براءة وجهك، كان عطوفًا لحد الدهشة، رقيقًا كاليمام، وملامح طيبة حائرة فى الوجه الخائف، الآن فقط، كأنما يريد أن يدثرك، يهدهدك، يتقوقع عليك مستجيرًا بفضاء صامت وليل كموج البحر، ما الذى يجعل الكلام دافئًا هكذا، إذ يهمس فى أذنك بصوت رطب، ينسلخ جليًا بين ارتعاش الفم:

كشفت حليمة على خد النبى نور فرحوا الصحابة وقالوا جممنا نور

لك جوز عيون سود جل الذى صور لولا وجود النبى ما كان القمر نور

لا ترى سوى جسدًا يهتز فى رتابة، وصوتًا حنونًا يسرى فى أعماقك فيضحك وجهك البرئ ويفتح باب البهجة فى جسد يحتويك، أهو يجرى بك أم يرقص، يتنطط بك بين الزروع أم يهرب، يريد أن يحشوك بالدفء والحكايا واللحظات البقايا، يفرغ فيك حياته، يضمك باحتواء الروح وانفراس الفأس ومداراة البذرة من لفح الريح ومناقير الطير وجرف المياه ولسع الشمس، ويفنى ذلك الخائف فلا يصل إليك سوى همهمات ولسعات صقيع،

ويمرق بك بين الظلام.

يد الرجل التى سحبته هذا الصباح إلى هذا المكان تمتد صوب مطرقة الباب، يتأملها الطفل، كف نحاسية تطرق فوق فم مغلق، ترتد اليد مرتعدة. فهيبة المكان وارتفاع الأشجار وصياح الديوك الرومية وشموخ الحوائط والنوافذ والمشربيات، ورنات الأوانى فى المطبخ العامر، وطرقعات القباقيب على سلالم الرخام، وامتداد السور حد الشوف وحديده المصوب كحراب تخترق الفضاء، وبوابة تحجب خلفها وجوهًا لم يرها من قبل وناسًا كان يسمع عنهم حكايا تتناثر عبر البلاد والأسواق ويتداولها الفلاحون، حين تتقارب أجسادهم وهم يعزقون الأرض ويحكون عن عز لا يبيد، حيث الإسطبلات والخيول والجمال والبهائم التى تسرح على حالها فى وسع المزارع وتأكل دون مربض أو ضابط والسيارات حين تهيل التراب على وجوه الناس، وشوارب وأفواه تأمر، وتكايات وموائد وسرر وزخارف.

لحظات وحين تمتد اليد وتتحرك المطرقه يهتز الكون وينفتح العالم المجهول ويدخل من الوسع إلى الضيق ومن الخلاء إلى كهوف الأسئلة.. ما له ولهذا؟

إن إبراهيم عبد البر يعيد الأسئلة على نفسه، يقلب الكلام ويرتبه ثم ينسحق تحت صخور الخوف، يكاد يصرخ وهو الوحدانى لا أخ ولا ولد، يتذكر ذلك جيدا، ولماذا يتذكر وزوجته تذكره فى اليوم ألف مرة:

- جرى إيه يا إبراهيم، دانا لميتك من الشوارع.

يعرف أنها فى انتظار عودته بنفس الوجه الذى ودعته به فى الصباح قاسيًا كالجوع عبوسًا كالخماسين، تلعق لسانها الثعبانى وتفتح زكائب شتائمها وتنتقى من مُر الشتائم ما يجهز عليه وييبس دمه ويطرده كسيحًا ككلب البحر، الباب يُصفع فى ظهره وألف

يد تدفعه صوب المدافن، يتأمل الصغير والمدى وبلادًا توارت خلف الأشجار ومساءًا يتسلل حثيثًا وأمانة فى رقبته ليوم الدين.

ماذا لو تركه هنا وعاد، قلبه لا يطاوعه، الولد كالطير الغريب، لا أحد يعرفه، ربما صرخ وتشبث بجلبابه ومشى خلفه، إنه لا يكاد يميز الأشياء.

المطرقة النحاسية ثقيلة بحجم صخرة، خفيف كقشة، دقاتها الهينة ستتعالى كطلقات تدوى وتوقظ المجهول وتعجل بالهلاك، اليد تمتد وترتد مرارًا كارتعاشة غصن، تطرق برفق ووجل تتنامى الدقات وتنتشر بين جنبات القصر، وصوت بالداخل يعلو ويشرخ الصمت، صوت حريمى لا يسمع، كأنه فى انتظار شئ:

- شوف مين يا عبده.

إبراهيم عبد البر يعوم فى بحر من العرق، ترتعد يده بكف الصغير، يرتد خطوات ويتمنى لو كانت لأبعد نقطة ممكنة، ودلاء من زيت الخروع تجتاح الجسد، لحظات ويحل القضاء وتتوه الحجة ويتلعثم اللسان ويهرب الدم، والجسد يُداس تحت سنابك الخيل ويُدفن فى عفن الإسطبل، ومَنْ شاف، سور أيما سور وصوت قوى آمر وخبر كالصاعقة، يتقوس الظهر تحت كرابيج آتية من عمق الظلام ويتكور كالمسموم حين يشتد عليه الألم، يئن متقطع الأنفاس والحجة والدمع المحبوس وثقل الأمانة.

ينفتح الباب فتتكشف أنصاف الأشياء والطريق الممهد والشجر المنسق وسلم القصر الرخام والأسد الحجرى يبص فى غطرسة وثبات، يتأمله الولد فى دهشة، يطل وجه أسود من الباب الموارب، يصافح الخلاء بشارب خفيف وشعر أشيب وظهر منحن يتفحص الواقف أمامه:

- أيوه عاوز حاجة؟

-

تبخر الكلام الذى كان قد أعده منذ خروجه من البيت:

"يا إبراهيم يا عبد البر أنت مرسال والولد ده أمانه، واللى أنت شفته فى الليل كان قتيل، لا تعيد ولا تزيد، أنت راجل واحدانى لا عيل ولا تيل ولا أهل. إن قتلوك ملكش دية.

- يا جماعة...

هتقول إيه يابراهيم يومك أسود، قتيل ومين قتله؟ وشفته فين؟ وسين وجيم وراح فين. وايد تمسكك وايد تسيبك ويمكن يقولوا أنك أنت اللى قتلته، إيه يابراهيم، الروح ميخدهاش إلا اللى خالقها..

"راجل عطانى الولد ده وقاللى وديه قصر المغربى".

- عاوز حاجة يا عم.

يوشك أن يسقط وهو يجهز الرد:

- مين هنا؟

- أنت مين؟

- إبراهيم عبد البر.. وده..

حين حطت عينا البواب على وجه الصغير غمرته الدهشة، تقوس ظهره واقترب، يتأمل الوجه الصغير عن قرب، يتشمم رائحة الجسد الطفل، يتوه فى براءة الملامح، ما الذى حدث، يبرك على ركبتيه كجمل، يفتح ذراعيه ملء المدى، يحملق، إن خانت العينان فلن يخون القلب المتلهف، ولا انديا‌ح الحنين فى صحراء الجسد العجوز ولا تدفق الدم فى العروق المتهدلة.. ياه، نفس العيون، والأنف الدقيق والنظرة التائهة، حمرة الوجه المائل للسمرة وثقل الحواجب، الشامة على الرقبة تشبه عنقود العنب، كأنه هو (البيه) الذى غاب منذ أيام، عاد فى ملامح طفل، تذكره نفس الملامح حين كان يحمله صغيرًا منذ ثلاثين عامًا، كان يحمله على كتفيه بين الدروب

والزروع والسواقى واصطبل الخيول وحدائق الموالح والموارد ومفارش الخلل وليالى الذكر وتطوحات البيارق وهمهمات الذاكرين ووجوه الفقراء وحلل النابت، يشترى له الحلوى وياكل نصفها.

- ادينى حته يا سيدى.

فترتد اليد الصغيرة منكمشة قابضة على الحلوى فى فرح.

- طيب أنا هفتح حنكى يا سيدى وأنت حط فى حنكى.. هَمْ ياجمل.

لحظات وتزوغ الحلوى داخل الفم الواسع وسط ضحكات العابرين وخربشة الصغير وتنطط الكتفين الضاحكين. يلج به فى زحمة السامر ويرفعه فوق الأكتاف، فتلمحه العيون كملك متوج، فيشتعل السامر بالبهجة، وتصفق يداه الصغيرتان على إيقاع الأكف والدفوف والرباب، إيقاعًا منتظمًا يندمج ويعلو وسط الزغاريد وتطوحات الأجساد الضخمة واهتزاز العمائم، فتفسح الأجساد مكانًا له، فيرقص به داخل الفرح، رقصة المنتصر والعاشق والفاتح والمحب كأنه ابنه، وهو الذى لم يتزوج ولم يفكر فى هذا، ألأنه كالمسافر أم أن ذاك إحساس قديم بتغير الأماكن والأوطان والأعمال!؟ وربما تضيع الحياة فى لحظة بكلمة أو إشارة أو حتى من باب التغيير والفرفشة وإرضاء الحريم.

ويحكى للطفل الذى لا يفهم شيئًا حكايات طويلة عن عائلته وإخوته وخبز الشمس والنخيل والتماسيح وأسماك كالقوارب وحناء تصبغ الأيدى بالبهجة، وعيال يرضعون ضوء القمر وشمس الضحى وثمار النبق وأحجيات الجدة وتسلق الأشجار، فرقتهم البواخر والأوامر والأبواب وموائد الأسياد والإسطبلات، فماتوا تحت سنابك الخيل ورصاص المخمورين وتصويب الرماح فى ميدان الرماية على تفاح الرؤوس، وإيثار الموت على مسح الأعضاء، والنط من سفن ترحل إلى بلاد البيض، كانت قفزاتهم سلسة ومنسابة

ورشيقة، وصرخة قبل الولوج إلى قاع البحر ممطوطة كبداية موال ونهاية ندب، ربما كانوا يرون شيئًا مبهجًا، البعض قالوا إنها أيدى الأمهات ممدودة بفيض الثمر وآنية الرطب، تأتى من فضاء البنفسج. ممتدة حد الشوف لينة كالزئبق، كانوا يلجون البحر فى فرحة المشتاق، ومن يسقط فى ميدان الرماية ينحنى كعلامة استفهام وينساب دمه على التراب طلاسم مبهمة لا تمحوها الرياح ولا تشربها الأرض.

كان يدرك أن الصغير لا يفهم، وكان يحكى ويفضفض وينهنه كالطفل، وكمن يتخفف من حمل ثقيل ويرتاح لحظة على وجه البراءة فى ملامح الصغير، يشد الطفل عمامته ويضع إصبعه المسكر فى فمه الواسع. يريد استخراج الحلوى التى غاصت فى عتمة الجوف، فيعض الفم بحنو على يد الصغير، وتجلجل الضحكات ويميل عليه يهدهده بالمواويل والأحجيات فيروح الطفل فى نوم عميق.

كان متعلقًا بالصغير لدرجة الحياة أو الموت، كان أشد عقاب يناله هو أن يُحرم من حمله والطواف به بين مجالس الفلاحين والأسواق والمصاطب وحكايا أبو زيد والشاطر حسن وست الحسن، يحس أن الصغير هو الذى يحمله ويطير به فوق رؤوس القوم ويرفع من قامته فتتطاول مع شواشى النخيل وأبراج الحمام، وكان عقاب الصغير أن يمنع من الذهاب مع عبده البواب إلى بيوت الفلاحين واللعب تحت الأشجار والعبث فى مواجير العجين وعرائس الطين وشم رائحة الخبز المحروق.

إنه لا يزال يبرك على ركبتيه كجمل ويتأمل الطفل الوافد من عالم الغيب، ينحنى بذكريات السنين.. ويتذكر البيه الكبير عندما أتى به إلى هذا المكان.. كان كالأعجم وكان يحادثه ويعلمه ويجلس معه فى حجرته جوار الباب رغم استياء الزوجة

وأهلها، ولما أنجب ابنه الوحيد بعد سنين من التطيعة وانعدام الخلفة أسلمه له ليلاعبه ويربيه تربية الرجال ويوصيه:

- خلى بالك من الولد يا عبده.
- فى عينىّ يابيه.

تنداح الذكريات إلى ذهنه جلية تتدفق كالسيل، وهو لا يزال يتأمل القادم عبر الخلاء والأقدار، يود لو يحمله الآن ليتنطط به حتى يكل ويسقط، يتمنى لو احتواه بكل كيانه، ثم ينتبه إلى الرجل الواقف والخلاء والباب المفتوح ويفيق، يهمس لنفسه (إيه يا عبده.. مالك .. أنت اتجنيت ولا إيه؟ البيه ملهش ولد، الهانم مبتخلفش، البيه مشى من أيام ومرجعش).

- قلت اسمك إيه يا عم؟
- إبراهيم عبد البر.
- عاوز حاجة؟
- فيه حد غيرك هنا؟
- البيه مشى من يومين مفيش غير الهانم.
- ممكن أقعد معاك شويه؟
- ادخل.

تلفت عبده البواب وأراح كف الصغير فى يده وأخذه إلى حجرته وأغلق الباب وراح يستمع إلى إبراهيم عبد البر.

XXX

الليلة السوداء تظهر من أولها، ترسم ملامح الحزن على الوجوه وصفحات القلوب، وجوم بلا سبب، غبار مكحول بالدهشة يدهن الأشياء بالهسيس، إختفاء الطيور من قبل الغروب، وجمال من

الخوف ترعى فى ربوع القلب، لا سبب بائن، ولكن إبراهيم عبدالبر يعرفها مِنْ أولها. حين يلتهم الليل الغيوم، وينعق الغراب على النخيل القريب، وتركل لواحظ زوجته الأشياء، وتتعارك مع كائنات وهمية وأجساد رحلت، تجتر من وراء السنين معارك مع الجيران، وتسب وتلعن وتدفع الأبواب بعنف، وتعصر بطن الدجاجة التى لم تبض، وتسلخ جلد الحمار المربوط بالعصا، فتهرب القطة فوق السطوح، وتحرن الجاموسة وتكش فى نفسها، فيعرف أن هذه الليلة أسود من قرن الخروب، يقوم متسندًا على بقايا صحة من عمل النهار وعظام تتقعقع. يأكل نفسه عشرات المرات حتى يستحيل شبحا، ثم يبص ليجد عينيها تلفحانه بنظرة نارية وعداء لاسبب له. فيضع رجله على أقرب مصطبة ويمتطى حماره ويحمل الطنبور أمامه ويمضى إلى حقل الذرة البعيد، وكلما غاص فى لجج الظلام وهسيس الأشجار ونقيق الضفادع ومروق الخفافيش وتطوحات أعواد الذرة.. ارتفع صوته بفيض الآيات والاستعاذة والتسابيح، ينكفئ الحمار ويعتدل ويخوض فى بحر الظلام، فيرتعد كمن يمشى على الحبل، ويرد السلام على أشباح تمرق وحوافر تهيل التراب وعيون مستديرة تلمع ورؤوس ثعابين مصارف مفلطحة تبص، فيخنخس رأسه محاذرًا فروع أشجار لن تطوله، يضرب بطن الحمار بكعبى قدميه اليابسين ويستجديه أن يسرع، فالليل له ناسه وأسراره. ونهيق الحمار يجلب عليه قطاع الطرق وأصحاب الثأر وأولاد الحرام.

عندما مرقت طلقات طائشة بين الأعواد كاد أن ينكفئ وهوى قلبه فى رجليه وأوشك أن يبول على نفسه، ونخس العصا بعنف فى رقبة الحمار وصرخ فى الحيوان الأعجم:

- مش قلتلك ليله سودا من أولها.

وراح يرتفع صوته بالدعاء من القلب إلى الرب على بنت الحرام التى دفعته إلى هذا المكان، وماذا عليها، لقد أكلت رص بتاو وحلة جبن وتدثرت بالألحفة وغاصت فى الأحلام، تلك التى لم يتحقق منها شيئًا سوى موت العنزة الضامرة وفساد بيض البطة وحش رقاب الدجاج بين أسنان العرس، تحلم المتشفة بزرع وماء وخضرة وفى النهاية جف رحمها وعجز عن خلفة عيل يسنده ساعة ميل وانحناء الظهر، تحكى له عن حلم ينسجه خيالها العقيم وأشياء لا تصدق ومواكب غلمان وجمال وأنهار. تفصل الحلم كأنما حلمت به، ويهز رأسه كالمصدق، ويتطاير فتات الخبز من فمه الضاحك، وعندما ينصحها بأن تحكم الغطاء على جسدها تندفع يدها المجنونة تضرب فى الأبواب والحوائط والجرار وجسده الضاحك وتخطف الطبلية من أمامه:

- طب قوم والله مانت طافح.

قيراطان فى الزرع البعيد، استصلحهم أبوها على حافة المصرف، مأوى للحشرات والأعشاب الشيطانية، أعواد ذرة متباعدة عن بعضها كرجال متخاصمين، لا من حسن الزراعة ولكن من الملح الذى طفح على وجه القيراطين وأكل خصوبة الطين وباعد بين الأعواد، فاصفرت الأوراق وذبلت كعيال محمومين، هى وأبوها يسمونهما غيطا، ويفتخران بهما أمام من لاغيط له، يبدرانهما قمحًا ويحصدان نجيلا، يفرشانهما تقاوى الذرة فى انتظار جمال ستحمل البوص وأجولة كيزان ستُفرك وتُحمص وتُطحن وتُخبز، ثم لا تجد إلا أعوادًا معدودة منحنية كأسرى حرب، وتعب الرى أيما تعب، يذهب كل نوبة بالطنبور ويتدلى بحذر إلى المصرف، يدق حمال الخشب ويضع حديدة الطنبور ويصعد، يلف حتى الصباح، فلا الأرض ترتوى ولا هو يكف عن المواويل الحزينة، وشمس الصباح تكشف عن أرض

يكسوها الملح ويغطى السروال الكالح والسيقان العجاف، يقوم فرحًا بذلك الكساء الذى عم قدميه ولكن قشرة الملح التى كست ساقيه سرعان ما تذوب وهو يسرع صوب البيت ليترك الحمار والطنبور ويذهب إلى عمله كأجير فى الحقول.

يعنى القيراطان إن لم يشريا هذه الليلة ستحدث مصيبة، ستقوم القيامة وهوجة عرابى وينطلق الهجانة بكرابيجهم والبربر بحرابهم، ملعون الشامى على المرأة على أبيها والفقر وسنينه.

لم يكن قد أراح ظهره من عمل يوم شاق، ينحر بفأسه فى أرض الناس، فتنبت زروعهم وينضج ثمارهم وتعلو بيوتهم وتمتلئ صوامعهم بالغلال ويعود هو آخر النهار بقروش قليلة تدفنها فى صدرها لتغوص فى بئر، ليس له إلا لقمته تضعها أمامه كعليق الحمار، عيش ذرة وجبن مالح ممصوص الدسم، شئ يحرق القلب ويحل مفاصل البنى آدم الذى يكدح طوال النهار، يئن تحت سياط الشمس ونظرات صاحب الأرض والإنحناءة اليائسة، يدور الدجاج ويتنطط ويخطف من أمامه فتات البتاو ويقرقر، ويبيض والأوز، والبط يملأ البيت بزقًا وضجيجا، يود لو يمد يده ويجذب واحدة ويجز عنقها ليشرب جسده الشراقى من مرقها الدسم ويعض فى سمانة الورك عض الذئب الملهوف، ذكر البط يكسح على الأرض من كثرة اللحم المكتنز، فيغمض عينيه ويتخيل أنه يقطعه نسيرًا ويلقم ويلقم.

- من الشبع غمضت عينك.. قوم.

وترفع من أمامه البتاو والجبن وتهش أمامها جيش الطيور التى حرمتها عليه، تبيعها فى السوق وتضم نقودها إلى التى فى صدرها لتغطس فى بئر عميق.

أبوها الذى اقتحم الباب بعكازه الصفصاف، يتأمل الفتات أمامه ويصيح:

- أكل ومرعى وقلة صنعه.
- جرى إيه يا عم برعى؟
- القيراطين عطشوا يا فالح.
- يعنى اروح فى الليل؟

مقصوفة الرقبة تضرب فى الأبواب والحوائط والأوانى، دعى عليها بحرقة أن لا يصبح عليها الصباح وأن يمشى وراءها ويأكل من عزائها ويصبح صاحب القيراطين اليتيمين الذين تعايره بهما أمام الناس (لولا الأرض مكنتش خدتنى يا هايف).

صوتها يخترق سطح البوص والجُدر ويتجمع الجيران فى بقعة الضوء الشحيح يستمعون إليها وهى تأمر بصوت قاس:

- آمال إيه قوم اسقيهم الوقت.

فأسرع واحتضن الطنبور وامتطى الحمار وشق بحر الظلام، عصاه تضرب بعنف على مؤخرة الحمار الطيع، فيلسع صوتها جبين الخلاء:

- أيوه يعنى كنت اشتريته.

يجيبها من تلافيف الظلام وكأنها تلاحقه:

- أنا اتكلمت.. أنا ماشى أهه.

كان الحمار قد وصل إلى القيراطين، فدحرج الطنبور على ملاءة الظلام وارتمى يرتجف، حيث الطلقات تنطلق مجنونة عبر الظلام، التصق بالأرض كحجر، عرف أن الموت يحوم حوله ولا بد من واحدة من هذه الطلقات ستستقر فى رأسه، إنها تهوى كجيش ناموس يتطاير، اختبأ بين أقدام الحمار واحتمى بالبطن الساخن، استجار برب الليل والنهار والفلك الدوار والنبى وبنيه وأصحاب السر الباتع أن ينجو من هذا الكرب، تمنى لو أن السيد البدوى يمرق بحصانه الآن ويخطفه بعيدا، يصد بدرعه ذاك الرصاص المنهمر لتفاجأ به (لواحظ) مرميًا فى أحضانها يحتمى بالأغطية،

تندهش ويمكن أن تموت بسببها، آه لو أن أبا زيد يشق الفضاء بسيفه اللامع ويصرخ فى المدى متحديًا فلول الأعادى ومكر الزناتى خليفة، فيفر اللصوص وتختفى الطلقات، يبوح لليل وأعواد الذرة وحماره الساكن بأسراره ووصية المحتضر وتوسلات الخائف وفيض الدموع، فمرار الكلام الذى يبخ كالسم من فم لواحظ وأبيها أرحم من الموت وتخريم الجسد بالرصاصات الطائشة التى تحصد شواشى الذرة.

يلتصق بالأرض ويتشبث بأقدام الحمار.

الأصوات تقترب. فيسمع تماوج الأعواد المتكسرة ولهاث المسرعين، فيعزم فى قرار نفسه أن يستسلم لأوامر زوجته وأبيها وأن يكون عبدًا مطيعًا لهما، وأن يأكل ما قدموه له (لو حتى سم هارى) ماله الجبن والمش والعيش الذرة، نعمة وفضل (حد لاقى) ماله والدجاجات باضوا أم لم يبيضوا ذكر البط سمن وجر لحمه على الأرض، لن يحلم بريشة منه، فليملأ الإوز الدار ولتبع ولتدفن فى صدرها، تفعل ما تشاء.

واه.. يكاد يبول الآن على نفسه حين دنا منه اللهاث، وجفل الحمار وارتفعت الأعيرة. لا شئ يوقف ارتعاشة الجسد واصطكاك الأسنان وجمل الخوف الذى برك عليه وهو ينظر صوب الواقف أمامه، رآه ما بين ارتعاشة العين وقشرة الدمع وعمق السواد، كان ينحنى كالشفق، يميل كشجرة صفصاف، يحذره بإصبع مرتعش أن يسكت ولا يتحدث. وهو لم يكن فى حاجة إلى هذا التهديد، فقد هرب منه الكلام بلا رجعة، وثبتت النظرات على شبح الواقف أمامه يحمل طفلاً بين ذراعين يرتجفان، يهدهده بالمواويل والهمهمات، رغم الطلقات والليل والرهبة وتطوحات أعواد الذرة التى تقترب، كان يغنى للصغير غناءً متقطعًا كأنما يحشوه (كشفت حليمة على خد النبى نور...)

فيضحك الصغير أمام الظلام والخوف والوجه المرتعش، يضمه إلى صدره ويئن كجريح بألف حربة، تخرج الآهات من صدره مبحوحة، آهات طويلة بحجم الفراق وضياع الأمل وانفلات الصيد من قبضة اليد ووداع الجسد الذى لن يعود، يريد أن يقتنص اللحظة الهاربة، إنها تعنى الحياة والتواصل وامتداد الروح، حين يبص فى الوجه البرئ، يتأمل الأنف الدقيق والشفتين الحمراوين، ينبض بالحياة ووصل المقطوع ولمة الشمل وعقدة القسيس على جبين العروسين وانبساط العمر، يحمله بفيض الشوق، ويستجير بخلاء شاهد على المكر، يود أن للأرض ذراعين فتحتضن الجسد الصغير، تدثره بدفء الأم وتحميه من لسعات البرد ونباح الكلاب وفحيح الأفاعى:

- مين هيحْميك يا ولدى؟

إنها اللحظات التى تنسلخ كف المودع من حبيبه، لحظات يتحسس فيها رقة الجلد ونعومته ودفء الشرايين وخارطة تكتمل، وكأنما الروح تجمعت فى اليد وتسللت عبر الأصابع ووقفت تتعانق على حواف الجسد، لحظة لا تحويها السنين ولا الذكريات ولا التصاق الأجساد ولا طول العناق، حين تصافح الحبيب فتترك الروح فى كفه، لحظة انسلاخ الجسد بروحه ليحل المدى العزول والفضاء الثلج والساعات الثقيلة ووهن الحياة وقلة الطعام وشرود الروح الكسيحة وبصة المحتضر إلى المجهول، يريد لهذه اللحظة.. وهو يضمه.. أن تكبر بحجم شجرة وتنساب بامتداد نهر واتساع مدى.

ويميل على إبراهيم عبد البر الغارق فى دهشته، يندمج خوفه وبكاؤه ويتسلل الحزن إلى أعماق روحه، يدفع بالطفل إليه، كقائد يسلم علم اللواء لمن ينوب، يغرسه بين ذراعيه، يؤكد على التحام الجسدين وأنه الذى أمامه إنسيا وقلبًا ينبض ورجلاً جاءه من عالم الغيب وصوامع العابدين وأوراد الذاكرين، يهمس بحرص

المتربص ولوعة الخائف وأنين الحزين:

- يا أخى إن كنت مسلم أو نصرانى، الولد ده أمانة فى رقبتك ليوم الدين.. وديه قصر المغربى قلهم ده ابن جابر المغربى.

وتعلقت عينا الصغير بالذى غاص بين الظلام والأعواد، إزدادت الخشخشة وتوالت الطلقات وحاصرت الجسد الهارب، ارتفع صراخه المستغيث وهمد فارتجف الطفل فى حِجْرٍ يلتف عليه كخيمة.

القيراطان شربا من عرق المرتجف ودمع الطفل ودم الغريب، والليل ينسلخ على مهل، لقد عاش إبراهيم عبد البر أطول فترة فى حياته فى هذه اللحظات. يتأمل الصغير ويضمه فى حجره ويملس على شعره الناعم فيغط فى النوم، ينفث الفجر بشائر الضوء ويرشرش النسمات الحاقعة ويقشر الكون من غلالة الظلام، فيمضى بالولد والطنبور والحمار صوب بيته البعيد.

وبارتعاشة الملهوف وجرى الخائف ولوعة المضطرب، تدب يده على الباب الهش، يلعن الكسل وصنف الحريم، ومن بين ألحفة وكوابيس وعوالم الأحلام يشق صوتها غبشة الضوء ناعسا:

- مين؟
- افتحى يا وليه أنا إبراهيم؟
- يوه يعنى جيت بدرى يا راجل؟
- افتحى قُلْت.

يدها الكسول تفتح الباب أمامٍ الريح والخلاء وإبراهيم الذى عبر غلالة الضوء الملتاعة يحمل طفلاً بين يديه، سرعان ما تركت يدها الباب لتدب على صدرها:

- إيه ده يا راجل؟

لحظات ترتاح الأنفاس اللاهثة ويتأمل الطفل وفراغ البيت وسطح البوص وزبالة ضوء تحتضر فى هباب اللمبة الجاز والألحفة

الدافئة ووجه زوجته العبوس، كان يريد أن يتأكد أنه ما زال حيًا وأن الذى حدث فى الظلام كان حقيقة وأن الطفل بين يديه.

بدأ صوتها يندفع من حنجرة لاصقة طاردًا أمامه البلغم والرذاذ ليعلو فوق الأسطح كالعادة، كانت يده أسرع إلى فمها، حذرها من ارتفاع الصوت، فالناس لم يرو شيئًا والليل ستار:

- اقعدى أنا احكيلك.
- استنى انادى أبوى.

لحظات وعادت بأبيها الذى سأله عن الحمار والطنبور.

- أنت همك علىّ ولا على الحمار.
- طبعا أصله مش تعبان فيه.
- استنى ياوليه خلينا فى المصيبة دى.

تسلل الضوء من فتحات البوص فعبأ المكان وأرهب الحشرات فسرحت البراغيث بين الألحفة والحصير وشقوق الأرض، ورحل الظلام العوز وتجلى وجه الطفل المنمنم وعينيه الواسعتين تتلفتان ببراءة فى ضوء المصباح المحتضر.

كل الأسئلة تدور فى الرؤوس، كيف إذا رأى الجيران الذين يقتحمون البيت متعللين بأسباب واهية ربما ليشعلوا لمبة من لمبة أو يطلبون شيحًا لطرد الثعابين أو غربالاً أو مطرحة، كيف إذا رأوا طفلا فى بيت عاقر.

لقد همست بحنان ما حسه من قبل، انفرج وجهها المكرمش عن ابتسامة باهتة:

- خليه لينا يا إبراهيم.

كان كأنما يحارب شيئًا وهميا، يتململ فى جلسته، ويفرك جبهته بعنف، وكلامها يتدفق فى جذور قلبه اللاهث، تتردد

الفكرة بين العقل والقلب واشتهاء الولد وبسط الحياة وعمار البيت والمرأة العقيم وطفل جاء به الليل الستار، إنه يصد ويمنع بكل ما أوتى من قوة وصلابة ظهر وتحمل لهيب الشمس ولسع الكرابيج ووقع الشتائم ومرارة الصبار ودفء التراتيل والرضا بالمكتوب وثقل الأمانة، فيتنجر صمته قويًا مثيرًا لدهشتها:

- يا وليه ده أمانه.

أشياء كثيرة دارت فى ذهن الأب وابنته، تتناقلها عيونهم المتشوقة إلى ظفر عيل يرث القيراطين والبيت ويحيى ذكرى عائلة فنيت.

أما إبراهيم فقد كان يفرك البتاو فى صحن اللبن ويغطس اللقيمات ويضع فى فم الطفل:

- كل يا حبيبى واشبع مشوارنا طويل.

وراح يجذب جلبابه من على مسمار الجدار وينتعل حذاءه لينطلق بالأمانة قبل طلوع الشمس.

عبده البواب يستمع فينطلق التأوه والدمع الحبيس وصمت السنين والأنين المكتوم، ذراعاه تحتضنان الجسد الصغير والروح الممتدة وعبق الأنفاس الدافئة، عرق المرتجف مازال عالقًا بالطفل، يضمه بشوق السنين، وانداح المعروف، وغزارة لحم الاكتاف، وعودة الغائب، وملء الشوق للزمن الجميل، والمجد والضحكات، ودغدغات الضلوع، وارتفاع القهقهات ملء الدروب، وتدلى الأقدام فى الماء الجارى، والتزحلق على نجيل الجنينة، والإختفاء خلف الأشجار السمكية، وطعم الحلوى العسلية، ووصايا ليلة الزفاف، وعجين الحناء ونقوشاتها على ظهور الأيدى والأقدام.

- كفاية يا عم عبده غرقتنى حنه.

- المرحوم أبوك موصينى أحنيك ليلة زفافك.

ويرقص العم عبده بعصاه فى فرح الوحيد، فيشرق وجه الشاب

وسط الأغراب، كان هذا الرجل أهله وعالمه ووصية الأب:

- اوع تزعل عبده البواب ده ملهش حد غيرنا يا ابنى.

لقد كان يشهق الأسود فى نشوة الرقص، أكان يبكى حقيقة أم هى دموع الفرح، يطوح عصاه ويبص عليه من بين المعازيم، يعرف أن لا أحد يخاف عليه غير (عبده البواب) فلا أهل له ولا عشيرة ذلك المقطوع وهؤلاء الأغراب، لقد تبعه حتى حجرة النوم وعاد إلى حجرته بجوار الباب، سهر حتى الصباح يشرب الشاى ويبدر المواويل ويترقب النهار ليدخل عليه، سيقبل سيده أمامهم. هو ليس سيده فقط بل هو ابنه وعزوته وكل ماله فى هذا الكون، يعرف أنه لن يستاء لذلك، وإن كان سينظر لحظة فى وجه زوجته ليدرك مدى الإستياء على وجهها، العبد يحتضن سيده، وماذا يضير. وهل له غير ذلك الطيب، سيقوم ويبادره بحضن متلهف ويجلسه بجواره ويحدثهم عنه، هو لا يخجل، الولد نبتة الأرض وابن النخيل، وإن كان المغربىّ استقر هنا واشترى أرضًا وسيعة وباع عطارته المحملة فى المراكب عبر البلاد ولكنه أحب هذا المكان، وإن كانت انقرضت سلالته ولم يبق إلا أنا، فهذا الرجل جاء به جدى معه على المركب، يقول أنه تشبث به وهو طفل، فر من قصر هناك واحتمى به وحمل أجولة العطارة والبخور والتوابل، شاهد شراءه لهذا القصر وتلك الأراضى، سيحكى لهم حتى ولو ولوّا ظهورهم وخرجوا وتجاهلوا حديثه وتنازعوا كؤوس الخمر ورشقوا الحمام بالرصاصات وتسللوا حيث بنات الفلاحين يملأن جرارهن من النهر القريب، سيظل يحكى حتى يرتاح العم عبده ويسعد ويقوم منتشيا كصاحب الفرح.

العجوز يتذكر وتتعالى شهقاته وصوته المكبوت:

- قتلوك يا حبة عينى.

- مين يا عم عبده؟

- الراجل اللى آنت شفته فى الليل يبقى محمود المغربى ابن حسين المغربى صاحب القصر ده.

ويحكى عنه.. صاحب المجد والوجه الناضح حمرة، نبت هذه الأرض وحدها وآخر سلالة أهلكتها التدابير والنسوة الأتراك والمراكب الذاهبة بخيراتهم. ودس السم فى آفخاذ الضان وصوانى الشركسية، وطلقات الليل الطائشة، والسيارات المحملة بالطرابيش والشوارب. والسهرات الممتدة حتى انغلاق العيون، ونوم رجال المكان المتعبين من تجارة نقلوها، وبواخر حملوها، وتوابل وبخور وعقود وخلاخيل، يروحون فى نوم غافلين عن تطوحات الستائر وعناق الوجود الحمراء، ودوس الأرجل فوق العمائم والأسرة وبقايا الكرامة. وسَلْت الكرادين من الأعناق، والمكاتيب التى تحشو الهدايا، ورنات القباقيب على الأجساد المشلولة، وتكسير حديد النوافذ لسهولة خروج الأثاث، وعينا عبده البواب حين تبص عبر انحناءة مؤدبة، تواجهها فوهات البنادق والمسدسات والكرابيج ولسعات عيون كالبوم وفتل الشوارب وشارات الأصابع المحذرة، فيتقهقر الأسود منحنيًا بسيارة الشاى عائدًا من حيث جاء، ينكفئ على صمته وهمه ويحتضن الفارس الصغير الذى يسقى أشجار الحديقة ويلقى الحب للطيور ويطمئن على حظائر المواشى، وكأن له ألف يد تزرع وتحصد وتنهى وتأمر وتحدق بغيظ فى الشوارب الخارجة.

ده محمود المغربى اللى شفته يا عم إبراهيم، ده من مره تانى محدش يعرفها، عرفوا مكانها وموتوها والبيه محمود جه مع أبوه حسين المغربى، كان يكبر أمامه كشجرة، وتلقى التعازى فى موت أبيه بنفس راضية ودنا من العجوز:

- أنت عوض عن أبوى يا عم عبده.
- أنت فى عينى يا غالى يا ابن الغالى.

لهم ألف حيلة وليس للوحيد حيلة، حين حطوها فى طريقه بشعرها الطويل وأنفها المدبب ولمسات أصابعها الرقيقة فوق البيانو، والطقاطيق التركيةوانحناء الشوارب أمامه، وحمله فوق الفرس، ومسح عباءته بالفرش الناعمة، وبروز الساقين الناصعين تحت ثوب شفيف، وخروجهم من البلد كلها لتقول له مالا يُقال، وتقدم له ما كان يرفضه فى بادئ الأمر، فتدنو منه بروائح أنفرد. وفساتين باريس تتطاير عن جسدها فيتجلى أمامه البستان، وعندما يهم ليقطف الثمار تحاصره الأجساد والمسدسات ويد المأذون والأسورة الذهبية والزغاريد فى ساحة الحرملك وشخير العجول المذبوحة والدم الذى غطى الرخام وسال تحت الشجر، وتهانى الشامتين تلاحقه.. فيبتسم فى خجل.

واحتلت هذا القصر، تأمر وتنهى وتفتح كل ما غلق أمام إخوتها الذين باعوا كل شئ إلا أسلحتهم، أكلهم وشربهم ونومهم هنا، وهو لا حيلة له معهم أو معها، هى التى لن تنجب بشهادة الأطباء وحلق الزار ولحم الجراء ومدافن القتلى وشرب الصبار والمرور بين أرجل الجمال.

وكان الوحيد (العم عبده) الذى يقتحم عليهم تدابيرهم حين يندفع بسيارة الشاى خائضًا فى بحر السجاد، فيستمع أواخر الجمل عن الميراث والزواج والولد والقتل.

- ابقى اتكلم وانت داخل يا حيوان.

(حيوان)؟.. تلك الكلمة ما سمعها من أحد حتى البيه لم يكن يناديه سوى (يا عم عبده) بملء الفم وأدب أولاد الأصول والجميل للذى ربى وداعب وعلم وشال على الأكتاف، كان يتسلل إلى حجرته هذه فى أنصاف الليالى، يرتمى على صدره ويبكى كطفل:

- مقدرش افضفض لحد غيرك يا عم عبده. يرضيك أعيش مقطوع.

- اصبر يا ولدى.
- مفيهاش رجا يا عم عبده.

كان قد لمح له بأنه سيتزوج من أجل سلالة انقرضت وأشجار شاخت وشقوق فى الحوائط تزداد إتساعًا، وفدادين حد الشوف يعض عليها بيديه، من أجل ولد يوصل ما انقطع ويجرى الدماء فى الشرايين المتهدلة وتدب الحياة فى القصر الوسيع، يحكى عن بنت يراها فى الأفراح، يندس بين الغرباء ملثمًا، لا تظهر منه سوى العينين، هى تعرفهما وتترك الدنيا كلها والسامر وتتجه إليه، لا تعرفه ولكن تغنى له وحده وترقص له وحده وتزيح برفق حرامها الأسود عن شعرها الفاحم، فتتفتح أبواب قلبه على مواويل عبقة وسفن ترسو على البر، فينبسط المدد على فرش العيون وظهور الجدود وحِلَقِ الذكر فى ليالى المغاربة والطلاسم والأوراد والإشارات.

قال أنه سيتزوجها ويفك أمامها اللثام وعقدة الكلام والشكوى، ويصطلى بوهج النار وشمس الشتاء والحضن الدافئ والكلمات المهدهدة ودفسات الطفل فى البطن الرقيق وزغاريد الداية وحلوى السبوع وشد اليدين الشقيتين فى العمامة وأذن الفرس وسلسلة المحفظة الجلد.

- يووه.. مين دل عليك كلاب الليل يا ولدى؟

ويبكى عبده البواب ويحتوى جسد الصغير ويشهق أمام الضوء المنسحب.

الهانم التى بح صوتها وهى تنادى عبده البواب دفعت الباب بعنف.

- أنت مُت يا راجل.. ساعة أنادى ولا ترد.

الصوت الآمر ملأ الحجرة وأسكت الأصوات، تفحصت الغريب بنظرة متأنية، ينكمش الطفل مستجيرًا بجلباب إبراهيم المكرمش، يتأمل الذهب اللامع فى عنقها، عينان بريئتان وشعاع

قديم يخترق الجسد الآمر، فيتجمد الدم فى وجهها الأحمر، يرتعد لسانها، والعينان المستجيرتان تتأملانها فى غرابة وتتأملهما فى رعب، نفس العيون المتمردة والنظرات الساحقة والوجه الحكيم، كأنما محمود المغربى جاء من وراء الغيب لابسًا وجه طفل، لقد أوشك أن يسقط جسدها المترجرج، ما الذى بعث العيون من جديد، إنها تخترق الجسد وتعرى الأعضاء وتكشف المؤامرة التى دبرتها وتأكدت من نجاحها، حين ضمها ابن عمها بعنف وشوق السنين وجوع المحتاج وولوج الأرض التى ما مسها أحد غير الزوج، وأكد وهو يريها عمامته ملوثة بالدم وقطعة من سرواله، أنه رحل إلى الأبد، ووارى جثته فى البلد البعيد، حملها على الحصان وقطع المسافات فى عتمة الليل، ألقاها فى حضن بركة الهيش عند نجع الطوابين تلتهمها الذئاب والضباع، يؤكد ذلك وهو يروح ويجئ كالفارس المرتحل رافعًا قطعة القماش الملوثة بدم القتيل علامة انتصار أمام المرأة المتأففة.

أى جسد قد لبست أيتها الروح، الطفل تكاد تصرخ ملامحه ويعلو نداؤه فى الخلاء فاضحًا المرأة وإخوتها وأفعالهم، يجرهم على التراب خارج القصر، تتبدى ملابسهم المهترئة وتكنس شواربهم الشوارع ويطأ الخلق أعناقهم بالقباقيب.

المراسيل جاءت تستعجل رحيلها، وتنقل ما حصلته من بيع الأرض والقصر والأثاث، منذ أيام وهى تخطط للرحيل، اتفقت مع الجمسة الذين باعت لهم الأرض والقصر سرًا أن لا يأتوا بجاموسهم وأبقارهم وحميرهم إلى هذا المكان إلا بعد التأكد من رحيل الباخرة براياتها عن الأنظار، ثم يعودون ليفعلوا ما يفعل المالك بأرضه.

تود لو تختبئ الآن خلف أى جدار، تتوارى من قسوة هاتين العينين وسؤالهما وعتابهما الصامت.. لماذا القتل؟ تعرف أن العينين تسألان وتؤكدان أن أخوتها الذين أكلوا وشربوا ولبسوا وركبوا

الخيول واستباحوا بيوت الفلاحين وحريمهم ولم ينغلق فى وجههم باب ولا سر ولا خزينة.. أتكون الأيدى التى أكلت من لحم الأكتاف وسمنت هى الأيدى التى تزهق الروح الحنونة، جحيم الأسئلة يتوارى خلف الوجه البرئ، إنها تؤكد لنفسها أن أحضان القاتل ما زالت تدغدغ ضلوعها، وقطعة السروال والعمامة تحتفظ بهما فى دولابها، تدكنهم بقدميها فى كل لحظة، وأنها واقفة فى حجرة عبده البواب وأن هذا عبده بمكره وحوطه وركونه إلى جانب محمود المغربى وسماع أسرار القصر وحفظ وجوه الداخلين والخارجين، وهذه حاجياته البسيطة وعدة الشاى ومركوبه وجلبابه المعلق على الحائط وحصيره المهترئ وقطته، ولكن مَنْ الرجل؟ وهذا الطفل الذى تتحاشى النظر إلى وجهه؟ يتململ السؤال كمشلول يعافر الحراك:

- أنت مين.. ومين الولد ده؟

يحكى لها إبراهيم عبد البر على مهل، فتشتعل عيناها بالغضب، وينام الصغير فى حجر عبده، يعوم فى الدفء والنوم الثقيل.

تكشفت الأشياء الآن واضحة، فعلها محمود المغربى، تزوج رغم التخويف ووضع المخدر فى الشراب، وحيطة أهلها وهم يلفون القصر بأسلحتهم ويحاصرون الطرق والمصارف والجسور، يالمكر هذا الرجل وصلابته، عميق عمق انغراس جذور السنط فى الأرض الزرقاء، عمق الأحجيات وبصمات أبى زيد ومروق أحصنة الفاتحين وتشعب جذور النخيل وصبر الجمال، لم تكن عيناه تكذبان حين كان يجالسها فى الأيام الأخيرة ويردد المواويل التى كانت تكره سماعها، فيلمح من خلالها عن حبال الوصال ورسو السفائن وهامات النخيل وارتفاع الصقور فى جو الفضاء وغزلان البر وحمائم وبيض يفقس وزمن يصالح المهجور ويصل المقطوع، وطفل يثور ويدور ويرتمى على الصدر محملاً بالضحكات والأحلام ملء الكون، لم

يكن قادرًا على مواصلة الكذب أو الكتمان.. حين يواجه بظهره جسدها التى سهرت تدهنه بشتى أنواع الزيوت حتى تجلى كالقمر، وينزع يده من يدها الناعمة ليتركها وجحيم الأسئلة.

إن الأيام الأخيرة يسمع فيها الطير غناءه المتواصل ورقصه فى الحجرة وتنهيداته الطويلة وشروده المستمر وتجاهل نكاتها البائتة.

لقد ضمته بعنف وسألته بكل ما أوتيت من تحمل وكبت وفكر يشتت العقل:

- إيه حكايتك اليومين دول يا محمود يا مغربى؟
- صراحة أنا اتجوزت.
- إيه؟
- تزوجت وخلفت ولد كمان.

يوه يوه يوه.. من ذا الذى يمسك لجام هذا الفرس الجامح، تحطم الأشياء وتكسر البراويز وتمزق الثياب، صرخاتها تدشدش صمت الليل، وشتائم المعاجم التركية كلها لا تكفى، ودمه وإن شربته الآن لن يطفئ ذلك الغل المتقد، الميراث الذى تم تقسيمه سرًا بينها وأهلها والذين جاءوا يركبون البواخر والرسائل. سيبددها طفل يجئ فينمو كالنخيل ويدب محراثه فى الأرض العتيم وحرابه فى عيون الناظرين، لقد ذبحها الرجل بظهر السكين وفعل ما فعل.

تود لو أن الأمر يبدوا طبيعيًا حتى تقابل إخوتها. ولكن الدمع يخون والتشنج يزداد، وارتعاشة الجسد لا توقفها أى ضمة، الليلة امتدت إلى سنين، والرجل فجَّرها ونام، وفجرٌ ضن بطلوعه، ستزهق الروح قبل مجيئه، ولقد وصلت الروح إلى الحلقوم وتهدل لحمها المرجرج وارتمت على السجاد، تتلوى بلا ألم وتئن بلا وجع.

إخوتها ينامون هناك عنوة فى أحضان نساء الفلاحين، وأذرع رجال ترتفع فى الفضاء وعتمة الليل، تدعو بحرقة على هاتك

العرض وناهب المال.

وها هو الليل الثقيل يتزحزح ببطء مفسحًا المكان لضوء صباح لا يهمها سوى ظهوره.

إخوتها الذين ما أفاقوا من سكرهم صحصحتهم كلماتها الحارقة، ودلق المدى على رؤوسهم دلاء الماء البارد، فكأن أجسادهم قد غاصت فى عفن البرك، يمدون أيديهم مستجيرين بأيدى الفلاحين، ولكن الفؤوس تهوى على رؤوسهم بعمق الهم وهتك العرض وغيظ السنين وجوع البطون، إنهم الآن يرون أنفسهم على حقيقتهم، ها هى الأموال التى كانوا يتكئون عليها تضيع فى لحظة، والقصر الذى كان يحويهم ويلبسهم الهيبة والعز.. ها هم يخرجون منه تحت صرخة طفل سيجئ، ترقد المخاوف فى دمائهم، هم سيخرجون منكسى الرؤوس كأسرى حرب، تتناوب الأصابع الغوص فى مؤخراتهم وتسحقهم النعال، ما الذى يمنع تلك المخاوف ويثبت أقدامهم فى ذلك القصر ويجعلهم يكبون كفوارس فوق الأرض والأموال والنخيل والنساء.

فتلاقت أفواهم وأذانهم وصدورهم المشتعلة وحشوا مسدساتهم بالرصاص واستعدوا لمجئ الليل.

***

كان إبراهيم عبد البر قد أعاد الحكاية ثلاث مرات، وهى شاردة، لقد انتبهت على الحقيقة، والرجل يحكى من وجه يغلفه العوز، وتجعدات مهموم وانحناءة جائع، والنقود ملء صدرها تكبش وتمد يدها:

- خلاص سيبه وامش.. امسك..

عينا إبراهيم عبد البر ما رأت مثل هذه النقود، أوراقًا خضراء مفرودة كالريح، بل هى الزرع والفدادين واعتدال الظهر وتغيير

الملابس وملء الفم بشتى اللحوم ونعل جديد ومكان وسط المجالس وشارات الرجال صوب المارق بحصان بين الغيطان وبيت جديد وزوجة تحمل رمق ربيع العمر وطفل يجئ بعد سنين وعمار بيت وظهر يستريح من طنبور بالليل وفأس بالنهار، نقود كان يسمع عنها أنها خضراء كبيرة ملء الكف، الواحد منها يشترى فدانا، فكيف له بتلك الكبشة التى امتدت بها اليد البيضاء. لقد كان زواجه من (لواحظ) مقابل جدى ضامر وعمله فى القيراطين واحتماله لدمامتها وسوء لفظها.

تمتد إليه وهو الجائع لم يأكل منذ الصباح بل منذ عشاء الأمس والليلة السوداء، يتأمل النقود ملء اليد وفرحة زوجته عندما يعود إليها، ونظرها إليه بعين الاحترام ورجل البيت وسند الدهر وجلاب الخير.

تقترب اليد منه بعطاء سخى وكف مفرودة وهبة لا رجعة فيها:

- خد الفلوس دى.

لم يكن أعد كلامًا يقال، ولا تخيل نقودًا كهذه. وكأن نداءً داخله ينطلق برهبة عميقة وقوة تتحصن داخل الجلد المكرمش، وجواب ينطلق فى فضاء المكان وسلالم الرخام والأسد الحجرى وانحناءة العم عبده على الطفل، وسقوط الشمس فى حِجْرِ المغيب، يسحق وجهها المندهش.

- **لا يا هانم، أنا عملت كده لوجه الله وادى الأمانه سلمتها لكم قدام ربنا والراجل الطيب ده.**

ويعانق عبده البواب بشوق المفارق والشاهد على المعروف، وتعانق القلبان أمام الليل القادم.

ويبتلع الظلام ظهر الرجل العائد يتخبط بين هسيس جدران ونقيق ضفادع وطيور تشق الظلام إلى وجهة تعرفها، يتلفت خلفه

ويتذكر طفلاً كان يتشبث به وينكفئ ويعتدل ويركل بقدمه حصى الجسور ويتأمل خربشات العصافير على التراب الناعم.

بركان من الغيظ يهدر والكلمات تخرج من صدرها كالأنين:

- وإيه يعنى.

الباب الذى لا زال منتوحًا دخلت منه الصدور العريضة والبنادق معلقة فى الأكتاف، والأيدى التى تحمل آثار دم القتيل تمتد لتأخذ كبشة نقود جاهزة. ويدورون بانتظام مدرب ويعودون من حيث جاءوا فى لجج الظلام.

عبده البواب ألقى جلبابه على الولد ليدثره وأسرع إلى الهانم الغاضبة، لقد دنت منه أكثر من أى وقت مضى، ورأى عن قرب صدرها المتهدل والعروق الزرقاء وخطوط اللحم المتشابكة كصدور الإوز ولفح أنفاسها الخارجة من صدر متلهف وهى تحذره:

- حسك عينك حد يشوف الولد ده.. فاهم؟

ليلة العم عبده لم تكن ككل الليالى، رحابة تحتويه، يتنسم عبق الماضى ورقرقات النسيم على وجه الماء وهدوء القلب المضطرب وحنين الحداء على ظهر الجمال ودقات الصحون والنحاس فى بهجة السبوع، ودنو المحب من ضريح المصطفى، وغسل الصدر بالقهقهات ورقرقة الدموع الفرحة.

ما الذى يجعل الكون فسيحًا هكذا، أى دغدغة تهدهد الروح فيتجلى الليل رائعًا ورائقًا، يود لو ينتفض بكل كيانه، يتنطط حتى السقف ويرقص حتى الصباح، يعاتب الجسد الذى طالما اشتاق إلى لحظة كهذه، هيا انهض، أرقص، بعثر المواويل، لو أن ذا الجسد الذى شاخ والعظم الذى هش يطاوعه على الرقص حتى الصباح واللف والتنطيط ومواجهة الناس، الطفل يتململ على الفراش الدافئ يبدد خوف الليل وألم الوحدة وشكوى الصامت

وملالة الوقت.

يفتت الخبز قطعًا صغيرة، ويوقظ الطفل فيرتجف:

- اسم الله عليك يا حبيبى.. خُذْ كُلْ.

وبين اليقظة والمنام تتحرك الأسنان الصغيرة تهرس الطعام، الطير الطواف فى قلب العم عبده ينتقل من شجرة إلى شجرة ويصحصح العينين اللتين تريدان أن تناما، يضحك العجوز ويمد كوب الماء إلى الفم الصغير، فيشرب نقطة ويأكل فتات الخبز، ويعض على أصابع العجوز:

- حاسب عضيت صباعى.

فيضحك الصغير ويكحت الهم عن وجه العجوز ويغطس فى بحار النوم.

هل كان الطفل وهو يلعب فى أشياء العجوز المبعثرة يفهم ما يحكيه له الرجل؟.. أم كان يفهم ويسكت؟..

هذا ما دار فى ذهن العم عبده حين باح للولد عن الماضى والأب الحنون، وأسرة كانت ستنقرض لولا مجيئه، وغضب الهانم، والرجل الذى جاء به إلى هنا، وامرأة كانت ترقص لأبيه وحده وتغنى له وحده، ورجال يحملون السلاح مدوا أيديهم وقبضوا ما رفضه إبراهيم عبد البر، فيلتفت الولد بعينين حكيمتين، ويعبئ الأشياء فى كيس ويحملها على ظهره ويدور فى الحجرة (هل كان يلعب؟) ويبص الصغير من ثقب الباب إلى جنينة القصر وسلم الرخام والأشجار المتلاحمة، وديوك رومية تتشاجر ورجال يدخلون ويخرجون وسيارات تأتى لتحمل الهانم وإخوتها، توقف السائق وهى تفتح الباب وتوجه الكلام إلى العم عبده:

- الولد عندك ابقى كله.

وتتعالى القهقهات وتنطلق السيارة مخلفة سحابة من عفار، الذين اندفعوا كالأشباح بين طبقات العفار ومعهم عقود التمليك والجاموس والحمير والبقر والكلاب الجرية، ملأوا حديقة القصر وانفتحت أفواه البهائم لتلتهم الأشجار والأزهار المنسقة، ونسوة دميمات بشعور منبثة بجوار الطرح كقرون البهائم، ووجوه مكرمشة، وأيدى خشنة امتدت بسكاكينها تجز رقاب الطيور، حتى طيور الزينة والببغاء العجوز وتلقى الريش والفضلات للكلاب الشرسة التى انتهت من مطاردة قطة العم عبده وحاصرتها ومزقتها فانفتحت عيناها الخضراوان مستجيرتان بفراغ أبدى وبالعم عبده الذى احتضن الصغير وحمحم عليه وداراه فى حجره.

رجال عرقى بأكمام طويلة وياقات متسخة لم يكونوا فى حاجة إلى بوابين أو أطفال. صاح أحدهم:

- يا عم احنا اشترينا البيت ده باللى فيه.. ربنا يسهلك.

على العجوز الآن أن يرحل، قابضًا على بقجته ويد الصغير، وذكريات لذلك القصر والتماثيل وأشجار الزينة التى اجتاحتها البهائم وريش الببغاء العجوز وبراويز ولوحات تطأها أقدام الحمير ورسوم الجدران التى تعلقت عليها الحبال والمقاطف والمناخل، عليه الآن أن يلقى نظرة أخيرة على قطته التى مزقتها الكلاب الجربة فيبس جلدها وانبلجت عيناها فى تساؤل أبدى، يلملم بقايا ريش الببغاء الملونة من يد الأولاد، يقربه إلى فمه ويتمتم، كأنه يحادثها، فيرمقونه بنظرة بلهاء ويتقاذفون فيما بينهم بالجلة.

للخلاء وجه آخر، حين يتشعب أمام الغريب والطريد إلى مغاور وكهوف وأسئلة وحلوق مفتوحة وأنياب كمناجل، يضيق وهو الوسيع عن أن يتسع لرجل وطفل وذكريات متهشمة يكل بها ظهر العجوز المنحنى، والليل مارد يبتلع الضوء وملامح الأشياء، وطيور الله عائدة تشق زجاج الفضاء، يتأملها بعينين منكسرتين ويعلم

أنهـا حتمًـا سـتحط علـى شـجرة تعرفهـا وأعـشاش تأويهـا. زوابـع العفريت تهيل الـتراب والقش، وتطـوح جلبـاب العجـوز وتلسـع وجـه الطفل فتكسوه دموعًا وعطسًا ودهشة.

الخلاء لا يسأل إلا الغريب، ألف سؤال وسؤال. يواجهه بـآلاف الحـراب، كلمـا تقـدم خطـوة يـزداد انكماشـة وتنمـو فيـه أشـجار الخوف. أين ستذهب؟ إن الطرق تشعبت ووقف النـاس علـى حدود أراضيهم وبيوتهم والسواقى والترع، يصدون أقدام الغريب المتطفلة، يزودون عن أملاكهم، سد من أجساد تتلاصق على حواف الأرض، تعلو كجدر محصنة، وأصابع تشير أن ابتعد، عليك أن تمشى إلى مـا لا نهايـة، حتـى تكـل قـدماك ويتهـاوى جـسدك وتلتـف حولـك عشرات الوجوه، يتأملون غريبًا يحتضر، يحتضن طفـلاً لا زال يفتح فمًـا لاهثًـا وعيـنين متسـائلتين، مستـسلمًا للمـوت اللذيـذ، عندئـذ سيتوقف الخـلاء عـن الـسؤال عن إسمـك وبلـدك وهويتـك ووجهـك وماذا تحمل فى بؤجتك وصدرك وبطنك وعينيك، حتمًا ستستريح من جحيم الأسئلة ما دام القبر سيحتويك ولن تأخذ عظامك البالية حيزًا فى الفراغ ولا تزاحمًا على شبر أرض، ربما لفوك والطفل فى ثوب واحد وحفروا، حفروا حتى نشع الماء وهب عبق الطين اللزج، ثم ألقوك وهالوا عليك تلال التراب، فلا أحد مر من هنـا ولا شـافوا غريبًا وطفلاً يشقان أحمرار الشفق ويمضيان بلا هوية.

كل الصور تـداعت إلى ذهنـه، متشابكة وغائمـة، حتـى صـورة الأم بـدت بـلا ملامـح، والأخـوة الـذين مـزقتهم البـواخر والأوامـر والقـصور والمطـابخ ومراهنـات القناصـة علـى تفـاح الـرؤوس وتقعقـع العظام تحت سنابك الخيـل وخنـاجر المخمورين وفجـأة العاشـقين علـى أسـرة الأسـياد، يحـاول أن يتـذكر ملامحهـم وآخـر ضـمة حـضن والنظرة الأخيرة عند الرحيل، حين يحول بينهم الموج وسـارينة البـاخرة والخلاء السرمدى. إنه نفس الخلاء الذى رآه أول مـرة حين تبع فـرس

السيد ، وتقاسمته البيوت والمطابخ والهبات والهدايا ، ولكنه كان يسرع خلف سيده مخافة أن يلتهمه الخلاء فى فمه الأجوف، فيدنو، بل يلتصق بمؤخرة الحصان ويلسع وجهه الذيل المقطوع فيتشمم رائحة الروث ويلفح وجهه الفساء المباغت، ويجرى بلا هوادة متتبعًا الحوافر المنغرسة فى التراب، يقتحم الجسور والظلال وبوابة القصر، لا يهدأ أو يأمن إلا بعد أن تحتويه الجدران وينغلق الباب فى وجه الخلاء المطارد ، فيرتمى سعيدًا فى حضن الهوان.

يتذكر ذلك الآن ويتمنى لو يستطيع الركض أو العمل، الطفل يتشبث بجلبابه ويدور حوله ويلتصق به.

أيـ يـ يه أصبحت مأوى لهذا الطفل فمن يأويك أيها العجوز، يتغلغل فيه ذلك السؤال ويتلفت خشية أن يكون قد تلفظ به وسمعه أحد المارة، وهو الذى لم يمد يده يوما ، فإن روحه التى اعتادت مجالسة الذوات وأكل ما يأكلون، تتسامى أن تسأل أحدًا طعامًا أو بيتا أو مأوى، ويمضى مدفوعًا بعشرات الأيادى الخفية، يقصقص الجسور والطرق، بقجته فوق ظهره المنحنى والطفل يتشبث بجلبابه وآثار الأقدام تكاد تختفى تحت أرجل ليل سيهجم كغول على المدى ويفتح فمه الأسود ليلتهم الكائنات ويبخ الأسرار والخوف والعراء، والعجوز يتوقف فجأة ويعتدل بظهر متعب ويتأمل بقعة خالية على حافة المصرف، فيلملم البوص والأعشاب على عجل:

- لملم يا بنى الليل جَىْ.

ويتراص جدار البوص ويلتصق ويلتف حولهما الخص الصغير، فيضحك العم عبده وهو يرى الخلاء ينكمش خلف الجدار الهش.. ويتراجع الخلاء منكسرًا.

كان فى لحظة قد انكشف الغطاء عن عينى الصغير، حين ذهب به إلى السوق، مرة واحدة يحط فى بحر الظلام والكلام وهيصة العيال واحتكاك الأجساد ، يرى كل هذه الوجوه والدواب

والطيور، يسمع وهو ساكن الخص هذا الكلام المتشابك وتحط عيناه على أشياء تؤكل وقصب يُمص، يشير بإصبع صغير صوب أصابع البطاطا، ورائحة الشواء تخترق الرؤوس، والعم عبده لا يملك سوى جلبابه الثانى، يغطيهما بالليل ويظلهما بالنهار، أصابع تشير وأخرى تشوى ويتفسخ عنها الجلد الرقيق، فتبدو صفراء كالذهب، تنتقل عينا العم عبده بين أصابع الولد والبطاطا، تزوغ فى دوامات الحيرة، فى لحظة تتداح فيها المواجع وتكر فيها الهموم. لقد عاش طيلة حياته لم يضع مليمًا فى جيبه، ولِمَ يضعه، ولمن؟ ما دام يأكل ويشرب، الآن فقط يتمنى لو أن معه نقودًا فيطعم الفم الصغير، بيد حنون يلمس على رأسه ويود لو ينسى أو يلتفت ناحية البهائم التى حرنت، ولكن الولد تمسمر أمام بائع البطاطا، والعم عبده ولأول مرة يتمزق تحت مطارق تهشم رأسه وتودى بالجسد فى واد سحيق. يعتصره الحزن آلاف المرات ويحيله ذبابة صغيرة تحط على إناء العسل، يقترب فيبتعد، يزحف السؤال على اللسان ويرتد إلى الصدر الذى ازداد لهاثه وعلا وانخفض تحت تلال من رمال ومذلة وشعور بالخجل يجتاح الجسد، والولد ما أكل منذ الصباح، ليته اختار خبزا. كان من الممكن أن يلم السنابل وطحنها وخبزها فى إناء فخار، لو كان اختار نبقًا أو جميزًا لاستطاع بقليل من الحجارة أن يملأ جيبه، الأيدى تشترى والأفواه تلوك ورائحة الشواء تنتشر والقلب يئن تحت سؤال يتردد فى الحلق، وأخيرا:

- ادينى صباع نى يا بن أخوى للولد ده وربنا يخلف عليك.
- وماله يا عم.

يكبش ويضع فى حجر العم عبده:

- عاوز تانى يا عم.

الصغير يتنطط فرحًا، فيسحبه ويمضى بعيدا.

- من عينى يا حبيبى والنبى لاشوى لك بنفسى.

انطلقت رائحة الشواء من الخُص الراقد على حافة المصرف لتملأ الدنيا وتبهج الصغير وتهيج الحوامل والعيال، آى ريح حملت رائحة الشواء إلى الأسطح البعيدة، الأقدام تسرع وتقترب من الخُص وتمد القروش:

- ادينى بقرش يا عم.

فاطلق العم عبده ضحكة عالية وانفرد صدره على آخره كجوال بطاطا.

على شاطئ المصرف كان يزرع عقل البطاطا ويعلم الصغير كيف ينيم العقلة على جانبها، ثم يسقيها وينتظر كى تتفرع وتملأ البقعة الفارغة، ثم يلملم العرش ويقتلع الأصابع التى طفت على وجه الأرض كالبطون المنتفخة، هكذا دون أن تتكسر.

وفى صباح السوق يملأ الجوال ويضعه على حمار اشتراه ويرفع الغلام ويريحه على الحمل المتوازن ويمضى به إلى السوق.

ويتأمل العجوز ظهر الغلام يشق الفضاء كفارس جاء من عالم الغيب وزمن الأحجيات وأوتاد الخيام، فيمشى العجوز ناصبًا ظهره ويختال وراء الغلام:

- شد حيلك يا أبو الهوى.

"أبو الهوى" :

هذا ما أطلقه عليه العم عبده، فهو لم يكن يعرف له اسما، ولم يسأل إبراهيم عبد البر عن ذلك، وكان يناديه (يا بنى) إذا أراد أن يبحث عن الحمار بين الزرع أو يشترى شيئًا أو يعبئه بالوصايا والأوراد وزمن الملوك.

ومرة رآه يقف أمام باب الخص فاردًا صدره للريح، عنيدًا كصقر، كلما رده الريح للوراء ازداد تقدمًا واندفاعا، يطرب لرفرفات جلبابه

حين تعصفه الريح، ناداه بصوت حنون من داخل الخُص:

- يا ابنى اوع الهوى.

يسرسع صوت الغلام فرحًا منتعشًا للهواء المنطلق:

- أنا أبو الهوى.

- طيب تعالى يا أبو الهوى.

XXX

- أبو الهوى.. أنا تعبان يا ابنى.

أنين العجوز الخافت يشرخ صمت الليل وينشر بذور الأسى مرة كالحنظل، ويعبئ الصغير بالحزن:

- أنا تعبان يا أبو الهوى.

لأول مرة يسمعها الغلام، يتهاوى هذا العملاق الذى كان يحتويه ويدثره ويحنو عليه ويفرد جلبابه الصوف وينميه على بسط الحكايا والمواويل، ويقوم فى صقيع الليل يدفئ الماء كدمع العين، هكذا يتحسسه بطرف لسانه ويضع فيه قليلاً من السكر ويغمز الصغير فى مواضع تفجر فيه الضحك.

- قم اشرب ميه بسكر.

فيشرب الصغير وتتلقى الكف نقاط الماء المتساقطة على الصدر. ويطوف حول الخص فى عتمة الليل يتنحنح طاردًا أشباحًا وهمية وخطرًا محتملاً أن يكون، ثم يعود ليوقد الحطب ويسخن الخبز البائت ويعد الأكل اللين ويبص فى الوجه البرئ فى شوق لانفتاح العينين ببهجة الدنيا. حتى الصباح والعم عبده ما عاد قادرًا على كتم الآهة التى تخرج من البطن والمفاصل والجسد المتلوى وانطباق الجفون على عينين غامت فيهما الملامح، صباح يطرق الخص بمناقير العصافير وخيوط الضوء فيجد الخبز يابسًا كما

هو والماء صاقعًا لا تحتمله الشفاه، لا سُكر فيه، والولد الحائر يتلفت فى خص ضيق. يرقد تحت تلال الهم وفضاء الخلاء، يتسمع أنين العجوز المتعب وهو يتلوى على الأرض ويدب يده ويكبش الهواء والتراب، ومرات يدفع عن جسده بيدين ترتعشان، كأن خيولاً وهمية وكرابيج تطارده، يدور الولد كالمجنون ويعود يبص فى العينين الملتاعتين والفم المفتوح، يحتضن العجوز بذراعين صغيرتين، يخشى أن يفلت منه إلى الأبد، جسدان يرتعشان وخواء وهسيس وخلاء متربص، للموت رهبته، والصغير يتمزق تحت سياط الأنين، وعينا العجوز تتأملانه بين الوجع والتأوه، يرى الحيرة تفتح بابًا فى عينى الصغير، ينادى عليه بإشارات مرتعشة:

- تعال يا ابنى منيش فايده.. خلى بالك من روحك.

وفى حنو تلتف الأذرع ويلتقى الجسدان، ويبص فى الوجه العجوز والابتسامة الباهتة، ينادى أسماء مختلفة ونهايات مواويل ويتهيأ كأنه سيندفع إلى أياد مفتوحة، وناس فى الانتظار، ودقات دفوف، فتنساب الآيات من فمه جلية، والقلب الذى كانت تتهادى دقاته واهنة همد تماما، وسقط الذراعان مستسلمين للموت اللذيذ.. ومات العجوز، فما أيقظته العصافير ولا الشمس حين تسللت من فتحات الخص ولا نهيق الحمار بالخارج ولا ميعاد السوق الذى أتى، الصغير يحملق فى عينين ماتت فيهما الرؤية واختفى النفس وبرد الجسد..

- قم يا بوىّ عبده السوق هيروح.

- ....

- يا بوىّ عبده قوم.

الأصابع الصغيرة تدغدغ الجسد وتشد الذراع وتداعب الوجه المصفر.. وتخشب الجسد وانطفأت البهجة.. وصرخ الصغير ملء الكون والدهشة والخوف وهروب الحياة وانقطاع النفس وموت

الضحكة وفضاء الخص. صرخ فامتد صوته عبر الخلاء وسطوح القرية، يجرى فى كل اتجاه، يستنجد بالمارة.

حين واروه فى مقابر الصدقة وعادوا إلى بيوتهم لم يلتفتوا إلى الصغير الذى عاد وقد تشابكت فى ذهنه الأفكار وتاهت الملامح وتبعثرت الأسئلة، يتأمل خريشات العصافير على التراب الناعم والطيور العائدة إلى أعشاشها، حتى دنا من موضع الخص فلم يجد الحمار ولا الخص فقرر أن يواصل السير.

***

شجرة البرتقال التى استمعت إلى كلامه الصامت أسقطت واحدة فى حجره واكتفت بالهسيس.

***

الولد أبو ستيته ليس له عمل بائن، مرة يكبس القطن فى الأجولة بساقيه القويتين، يفرح عندما ينادون عليه من بعيد:

- خد يا أبو ستيته قالب حلاوة.

يمرق صوب النداء، يقفز فوق المصاطب والمعيز النائمة وظلال الجدران، تطبع قدماه فوق التراب الناعم كأخفاف الجمال، يعطونه الحلوى الطحينية التى يعشقها، فيجلس على الأجولة الفارغة ويلتهمها فى لحظة وسط اندهاش العيون والأفواه الضاحكة، يتأملون الولد الذى يجر ساقية، لا عيل ولا امرأة، والذى يكسبه يذهب إلى بطنه، حتى أمه الغلبانة (ستيته) إن لم تقم فى الفجرية تفرك شامى أو تحلب جاموسة لأولاد نظيم أو تلملم سنابل مبدورة أسفل الأرجل وفى الشقوق أو لوزات قطن نسيها الجناية وتفتحت بعد فترة، إن لم تفعل هذا لا تجد لقمة تقيم جسدها الهزيل، يكون أبو ستيته قد التهم قالب الحلوى ولحس

أصابعه وفرك كفيه بالهواء ونادى:

- ادينى شوال فاضى.

- خد يا أبو ستيته.

يختفى كمارد داخل الشوال الكبير وترتفع أذرعه عالية من الفتحة التى علت الرؤوس:

- ناولنى.

تكبش الأذرع من جرن القطن وتناول اليدين فيختفيان فى الشوال، يتنطط ويظهر شيئًا فشيئًا رأسه الكبير مغبرًا عاطسًا وعرقًا وجادًا، يدك بقدميه ويصبح ملء المكان بصوت رطب:

- يا رب صلى على الهادى   بارك فى قطن السنادى.

فيردد الحاضرون خلفه فى قوة وحضور وازدياد أمنية ورجاء من صاحب الستر ودرءًا للعين وزفافًا للعوانس وارتفاعًا للشواء والدخان ورائحة المرق تحت الأسطح الواطئة، الكل يردد بلا خجل، حتى صاحب الأرض يعلو صوته راجيا، يتلفت فى الحلوق التى تندفع منها الكلمات ليعرف عدوه من حبيبه ومن جاء مجاملة أو شامتا، فكأنما الكل يتسابق فى ارتفاع الصوت وإرضاء صاحب المال، واليوم عندى وغدًا عندك وكما تكون لى أكون لك، هكذا تصرخ الأفواه وهى ترتفع والأيدى تناول:

- يا رب صلى على الهادى   بارك فى قطن السنادى.

نداء يتنامى كالنخيل خلف الحوائط والدروب وبيوت الأفران والأجران، يرددون خلف أبى ستيته الذى يرتفع ويهوى داخل الجوال بكم العافية التى تملأ جسده العريض، والفرح الذى يسكن قلبه، وقالب الحلوى الذى لا زال يتلمظ حلاوته ويسيل الزيت على جانبى فمه، والخير الذى ما زال فى ظهره لم يفقده أو تأخذه امرأة، فيدك الأرض تحته ويصير اللين حديدا، شوال بعد شوال، تتراص

الأشولة بجوار بعضها كأسرى على بابا، تجسها الأصابع ناخسة فترتد فى تألم.

- حديد فى حديد والله وحلال فيك الحلاوة ياوله.

يقهته كالرعد من صدر خال من الهموم، فيتوافد العابرون على أجنحة ضحكته الخشنة، وتمتلئ الشونة بالناس والأجولة، ويرونه وهو يفرك يديه ويدك بقدميه فتمرق القطط فوق الأسطح ويندس العيال بأمهاتهم. ويصيح وهو الذى حطت العيون على محيط جسده:

- هات الشوال اللى بعده.

يا رب صلى على الهادى...

وحتى الصباح وصوته يجلجل مع نسمات الصيف وتطوحات الجريد وارتفاع دخان البخور، وخبطات العصى على القطن فيتطاير القش والعفار والنبته الغريبة فوق الجدران ورؤوس الناس وأفرع الأشجار، تتراقص الظلال على الجدران ويعطون نفسًا للكلوبات ويغيرون الرتائن ويمسحون الزجاج المغبش. فيتجلى الضوء وفحيح الكلوبات ويغط المكان فى الصحو، وكلما تجلى صوته ودشدش صمت الليل تعالت زغاريد النسوة بالداخل وقرص البنات بعضهم وفُكت الضفائر ودُهنت بالزيت الرخيص وشُد الكحل فوق الحواجب ونتفت الأجساد وحك الطواب المخرفش فى كعوب الرجول فتجلت كالأهلة، ويرم الشباب شوارب خرجت إلى النور، ودارت الأفكار تحت الطواقى، وحلا السمر تحت ضوء القمر، وحددوا مهور البنات واقتربت مواعيد الأفراح ودق الطبول وشراء الحصر وأوانى النحاس والكرادين، ودارت الخاطبة فى موكب من التحايا تفتح أمامها الأبواب المغلقة وخزائن القمح والشعرية والكشك، وتدنو البنات منها بضفائرهن وحمائم الصدور. الزغاريد التى تعلو فى الداخل من بينها زغاريد أمه ستيته التى تزغرد مجاملة من صدر متهالك وجسد لا يقوى على الحركة

وحسرة تفتت الحشى وبقايا زكرياتها لزوجها الذى أكله الدود وترك لها ذلك الهايف، الذى يتزوج الكل على إيقاع صوته ودكات أقدامه ورقصاته المضحكة وخبطات كفيه فى ليالى السامر، وهمه على بطنه، يأكل الدنيا ولا يشبع، ويكنس ما فى طبق الخوص من بتاو وجبن ولفت وينام تحت النجوم، لا يوقظه سوى صفعات الشمس بيد ساخنة على وجهه المعروق.

هو وأبو الهوى جمعتهما الأقدار وظهر الحمار والأسواق وحُب البطاطا، يجرى خلفه بقدميه المفلطحتين متتبعًا حوافر الحمار، ويلملم ما تناثر تحت الأرجل (ويزغد) من يطلب المزيد، ويفرزها فيرى المعطوبة والتى سرحت فيها الدودة، فيتأمله (أبو الهوى) وهو يعدل من شاله:

- والله واتعلمت يا أبو ستيته.

- تعليمك يا عم أبو الهوى.

ما تأخر يومًا عن ندائه حتى ولو كان فى منتصف الليل، يقومان فى غبشة الفجر، يقطعان أميالاً طويلة بين الجسور والسكك ونباح الكلاب حتى يصلان إلى السوق، يعبئه بنصائح البيع والشراء، كل بلد له سوقه، وكل سوق له ناسه، ناس يأكلون البطاطا أكثر من الخبز، وناس لا يأكلون، والمهم الرجل الذى يعرف متى يكسب ويرضى بالقليل ليبيع كل ما معه، حتى لا يتعب الحمار فى حمل الشوال ذهابًا وإيابا (فاهم يا وله).

(أبو الهوى) الذى يخزن فى ذاكرته كل شئ، لا شئ عنده يُحسب على الورق، فلان عنده كذا وأرسل كذا وباقى كذا، يذكر المستدين مرات بفمه، ثم تفصل العصا عندما ترتفع فتقابلها اليد بالنقود، حتى الطوابين أنفسهم يستدينون منه من وراء بعضهم، يأخذون ولا يردون، فيعض على كمده ويسكت، لا يسألهم عن إيجار أرض يأكلونه عيانًا من بنت عمهم، ليس له دخل

بذلك، بل وصارحها، فإن ما بينها وأهلها لا دخل له فيه.. ولكن عرقه هو.. ويبلع غيظه ويسكت.

فى المندرة وعندما تكتمل الجلسة ويطوف الشاى ويترطب الليل وتهفهف النسمة مداعبة أطراف الشيلان، تتفتح خزائن الحكايا وأخبار البلاد والأسواق وسعر القطن ورى الأرض وجاموسة ولدت، يندفع السؤال من أبى ستيته خشنًا مؤكدًا وجوده بين الجالسين:

- بكره هنروح فين يا عم أبو الهوى؟

وقبل أن ينطق (أبو الهوى) يواصل أبو ستيته:

- أقولك بكره سوق السبت فى طحا.. هات الحلاوة بقا.

ويشد الجالسون جلبابه فينفلت كالجمل الهائج. يهيل بأقدامه الأطباق والجوزه والأحذية المتراصة.

- استنه يا وله.

يستوقفه نداء (أبى الهوى) فيتمسمر مكانه.

- احكى حكايتك مع زكية بتاعة السمن.

فيعدل من جلبابه المتهدل ويحكى:

"أنا كنت فايت قدام الباب ونادت على، وشاورت بقالب طحينية وقالت خد كُل ده وراحت داخلة جوه، وبعدما لهفت الطحينية لقيت زلعة سمن مليانة لحنكها رحت لحستها، وبصيت لقيتها طالعة على لابسة قميص بافته ومتكحلة وسايبة شعرها، وراحت مسكانى، قمت زحتها بعيد وطلعت أجرى وهى تنادى وأنا أجرى، لغاية الوقت كل ما تقابلنى تقول والنبى لأعصرك عصر وأنزل منك السمن اللى أنت لهفته.

- إلا كانت عاوزة إيه يا عم أبو الهوى؟

- بقى مش عارف عاوزة إيه يا وله؟

والليل يحلو، والشاى بعد الشاى، والجوزة تلف ومعها سؤال (أبى الهوى):

- بقى مش عارف عاوزه إيه يا وله؟

فتمتلئ المندرة الوسيعة بالضحكات ومصمصات الشفاه وتمايل العمائم فوق الأجساد المترنحة.

ومن بين الضوء الشحيح وغبش الدخان والقهقهات المتواصلة والطواقى، تخترق عينا (أبى الهوى) الحواجز وتجول فى عينى أبى ستيته، يعلم أنه يفعل أى شئ إلا أن يكذب عليه، وعلى من؟.. (أبى الهوى) الذى يغمره بفيض الحب والحلوى والترحال إلى الأسواق والجلابيب الجديدة، أغناه عن العمل فى بيوت الناس وحش برادع البرسيم وكنس السباخ. حتى أصبح نائمًا قائمًا فى خدمة (أبى الهوى)، وازداد اقترابًا منه بعد موت أمه ستيته فأصبح وحيدًا لا مأوى له سوى صدر (أبى الهوى) ورحابة البستان.

يتحين اللحظة التى يسكن فيها الضجيج وتقل الضحكات وتبحث الأذهان عن حكايا جديدة وكلام يُقال، فلا زال فى الوقت متسع والليل طويل، والبيوت قبورا والبراغيث متربصة فى انتظار من يوقعه النوم على فراش مهترئ، فيصيح أبو ستيته:

- أنت أبوى وأمى يا عم أبو الهوى.

يضحك (أبو الهوى) بامتداد العمر والحيرة والإنطلاق، ويخرج تنهيدة يغسل بها الصدر المهموم، ويردد فى فضاء نفسه:

- أبوك وأبو الناس دى كلها كبيرها وصغيرها.

وتمتد يد أبو ستيته من جديد ليعمر الوابور ويغسل عدة الشاى، ويغير ماء الجوزة وينفخ فيها فيتطاير الماء على الأحذية والبلغ المتراصة، فيعتدل سعيد الطواب ويسلت باكو المعسل من الصديرى.

- خد يا أبو ستيته رص من هنا.

بشئ من العنف يزيح (أبو الهوى) يده ويخرج باكو مغلق ويلقيه أمام أبو ستيه:

- خلى معسلك فى جيبك، خد يا وله.

يُقال ما يقال، ويُشار إلى ما يُشار، وتسكت المندرة وتضج وتتقلب الحكايا، لكن عينى أبو ستيته لا تغيبان عن وجه (أبى الهوى)، يقرأ ما يدور بداخله، يتألم عندما يرى شبح الحزن يرقد فى عينى رفيقه، يلمح الغضب يكاد يتفجر داخل الوجه الصامت، فيريد أن يسرّى عنه، يتنحنح، وهو يعلم أن الكلمات التى سيقولها تعبئ (أبا الهوى) بالنشوة وتحمله على جمال وهوادج وبيارق ومواكب وترشه بالفرح وتجعله يتكئ ويزيح الطاقية على جبهته فيبدو أكثر عظمة ووسامة.

- يا عم أبو الهوى.

- مالك يا وله؟

- يا عم أبو الهوى.

كأنه يريد أن يجمع الأذهان والأنظار ويذكر الجالسين الذين أخذوا حكاية جانبية ودخلت فيها عبارات كالأصول وأولاد الناس والغرباء والأهل.. بأنهم ما زالوا جالسين فى حضرة (أبى الهوى) أمامهم بقايا الثمار وقشر اللب والفول وتفل الشاى ورماد الجوزة الذى تغيرت مرات وخير ما زال فى الأشجار الضاحكة من موالح وعنب وتمر، وأنهم يجب أن لا يحولوا دفة الكلام بعيدًا تتلاقى فيها الوجوه جانبًا وتزداد غمزات الحواجب والإشارات، مما يجعل (أبو الهوى) يتململ فى جلسته ويسرح فى ذكرياته المؤلمة وقد نضب بئر الحكايا وواجهته ظهور الجالسين وهم يتسامرون فيما بينهم ويتغامزون، ما عساهم يقولون عنه، عند ذلك يصل إلى ذروة غضبه، ذلك الذى يلمحه أبو ستيته، فيقف شادً من ظهره معدلاً من

الجلباب الجديد الذى اشتراه له (أبو الهوى) السوق الماضى، فيلملم خيوط العيون ويجذبهم إلى صياحه:

- أنت أبوى وأمى يا عم أبو الهوى.
- أبوك بس يا وله.

فتخترق الضحكات المجلجلة حدود المندرة وتنتشر فى ربوع البستان، فيتململ الحاج هناك فى مندرة الطوابين ويخاطب فراغا وضوءً شحيحًا وحشرات جدران ويلعن الزمن الذى تغير حاله وقال السبع للخروف (يا سيدى) و(أبو الهوى) يحكى فتنصت الآذان وتتعالى صيحات الإستحسان، وبين ضحكات وتثاؤبات، يخرجون، يتتابعون تحت ملاءة الظلام وهمس الليل ودفء الحكايا، يلعنون أبو ستيته الذى أغرق المداسات بماء الجوزة.

غابوا بعيدًا كالأشباح وتفرقت أصواتهم، وعدل أبو ستيته الحاجيات ورصها ونفض الحصير وهوى المكان وهم أن يخرج فناداه أبو الهوى:

- خد يا أبو ستيته.

تكشفت بينهما الأشياء فتجاوزت حدود الجسد والحواجز والعيون والأمكنة وغاصت فى أعماق الروح الشفيفة، يقرأ كل منهما الآخر ويعلم ما يدور تحت العمامة من أسئلة..

وأبو ستيته من أول الليل يبص ناحية (أبى الهوى)، يريد أن يخبره بما حدث، ولكن الآذان تنصت والعيون تنظر والقلوب المحيطة آبار عميقة ومغاور وكهوف وحميم يبخ الصهد، رغم تلاصق الأجساد والشاى بعد الشاى وطراوة النسمة واتساع الصدور مع الضحكات المنطلقة وصيحات الاستحسان للحكايا والسؤال عن الحال والمال، إلا أن الشرك الذى يجددون نصبه يظهر فى عيونهم الملتاعة عند سماعهم ببشائر التمر فى البستان وأجولة البطاطا التى تُباع وتعود

فارغــة، والمحفظــة المنتفخــة والــصدر العــريض. والــذهب الــذى يخشخش فـى ذراع بنـت عمهـم، فيتحينـون اللحظـة التـى يـذل فيهـا اللسان وتنكشف فيها بعض الأسرار لتعود الأفواه تتقيأ أمام كبير الطوابين ما سمعوه فى المندرة.

لـذلك يبص أبو ستيته ويبلع الكـلام مـرة أخـرى، و(أبـو الهوى) يلمح ذلـك فـى عينيـه مـن بـين خيـوط الـدخان والكـلام والعمـائم فتوحى عيناه بالصمت.

الآن يستوقفه ويبص ماسحًا الخـلاء المظلم، حيـث الأصوات قـد ابتعدت، فيحكم إغلاق الباب:

- إيه اللى أنت كنت عاوز تقوله وسكت؟
- النهارده رحت مع المباركة فى عزا، ركبت حماره وحدى وهنـاك قالوا خلى بالك فى الحمير والمرابط والبرادع، حمـاره سـابت لفيت عليهـا لقيتهـا فـى خرابـه تاكـل ورق وقـش، ولقيـت راجـل قـصير قاعد، قال الأخ منين؟ قلت من بلد أبو الهوى.. تعرفه؟
- عز المعرفة دا ابن عمى.. تعالى معاى.
- الحمير تسرح.
- تعال متخافش على الحمير، أهى مربوطة.

وأخذه وانطلق عبر دروب ملتوية ومتشابكة وجذوع نخيل وعيـال يتبولـون ومعيـز تحـك فـى الجـدران، والنـاس يتـأملون الغريـب الـذى يمشى بخطى واسعة وأقدام مفلطحـة تتدلى ياقـة جلبابه علـى جانـب صدره العـريض ويشـرخ الهواء بذراعين عفيين.

طرق الرجل بابًا هشًا وأزاح بقدمـه كلبًـا يفترش التـراب اللدن، لحظات وأطلت مـن الضوء الباهـت امـرأة عجـوز، تـأملت أبـو ستيته من بين حاجبين كثيفين وتراجعت بظهرهـا كـسمكة وغاصت بـين الفـرن والكـراكيب، تخطـى العتبـة وجلس علـى حصير متهالـك،

وقام الرجل وأحضر بتاوا وجبنا ولفتا مخللا:

- لكن صراحة يا عم أبو الهوى.. لفت يفتح النفس.
- قول يا ولد وخلص.

وأبو ستيته يحكى حين كان ينظر صوب سقف البوص المنخفض وخيوط العنكبوت الكثيفة، فراغ الحجرة الرطب تقشر عن بنت منكوشة الشعر تهش الذباب اللحوح، وجدى ضامر يجتر بجوار الفرن، ورائحة الشاى المحروق ودخان الكانون الذى عبأ المكان وفناجين الصنيع وتعميرة المعسل البارد التى حطها الرجل فوق الحجر، وكركرة الجوزة والهياج الذى اخترق سحب الدخان حين تنطلت البنت وشدت شعرها ورقصت وبكت فجذبتها العجوز بعنف إلى الداخل.

وهمد صراخها تحت الضربات الموجعة، فمال الرجل وهمس:

- عقلها شويه لا مؤاخذة.
- ربنا يشفى يا عم.. إلا أنت اسمك إيه؟
- اسمى غريب، كل البلد هنا ينادونى يا غريب.

صوت العجوز جاء من خلف الجدار الواطئ:

- ده اسمه سعد.
- متصدقش المجنونه دى، دى ما تعرفش اسمها، اسكتى يا وليه أحسن أحط رأسك فى الزير.

فى الضوء الشحيح والدخان المتصاعد والشاى المحروق تتماوج الأشباح، تتشابك الأيدى ويعلو الصراخ وتتمالى الصفعات ويتكور الثلاثة على بعضهم ويبكون، وأبو ستيته غارق فى دهشته، شبك القبقاب فى قدميه وقفز من فتحة الضوء إلى الشارع، ينتظر الرجل الذى شفط التفل من قعر الفنجان وقذف به وجه العجوز، تأبط ذراعه وطاف به الشوارع والأزقة، تلاحقه ضحكات المارة وخبطات

أكف المتعجبين ومصمصات الشفاه، والرجل شامخ الرأس. يتطاول كلما رأى أحدا، يتوقف عند كل تجمع ومسطبة ويلتصق بأبى ستيته ويواجههم بابتسامة ويشير إليه، فيترك الناس أحاديثهم ويندفعون فى ضحك متواصل.

فى الطريق همس له:

- قل لأبو الهوى فتحى ابن عمك عاوزك ضرورى.
- يا عم أنت مش قلت إن اسمك غريب وأمك قالت اسمك سعد؟
- أنت قوله وبس.. فاهم؟

كان صوت المقرئ هناك فى المأتم قد انتهى من العشر.. ووقف الناس يودعون المعزين فهرول أبو ستيته وصوت الرجل يلاحقه:

- قوله ابن عمك مشتاق إليك.

فتتعالى الضحكات من فوق المساطب والأسطح وخلف الأبواب الخشبية، وأبو ستيته يقترب من الحمير التى رفعت رؤوسها عندما رأته، والمباركة قادمون، فحمد الله وفك وثاق الحمير.

- أدى اللى حصل يا عم أبو الهوى.

يوشك (أبو الهوى) أن يحطم بعصاه صمت الليل والظلام واللحظات الثقيلة وامتداد المسافات، يود لو يهمس للشمس لتشرق على البستان ويعلن للنهار البكر وللملأ عن عمق جذوره وامتداد نسبه، وينادى فى الأسواق "أنا فلان ابن فلان وهذا ابن عمى وهذا ابن خالى". سيذبح عجلاً، ويجعل المداحين يهتفون حتى الصباح، سيأتى بأبناء عمومته ويسكنهم فى رحابة البستان، قلبه الطيب متسع لهمسهم وهمهم وحواديت الصبا، سيطعمهم من لحم أكتافه، ويحميهم من تقلبات الدهر ووحشة البعاد، سيشهد الصباح عليه.. هو الواقف بين زحمة الذاكرين والكلوبات يغنى بنفسه ويعبئ من بحر المواويل ويدلق فى الأرض العطشى، فتنبت

فيها زهور العشق وتلتئم فروع المانجو وتتلاحم الظلال، سيغنى عن عودة الغائب ورسو السفائن وبنانى الحمائم حين تعمر بالهديل، ستفرش الشمس ضوءها على الرؤوس وتكشف ملامح الطوابين وهم يتساندون على الجدران ويبصون من بعيد على وفود تأتى وتتلاحم وتملأ المكان:

- شايفين يا طوابين.. كل دول أولاد أعمامى.

همهماته ترتفع شيئًا فشيئًا ويخرج الكلام غير متزن من فم يرتعش، وأبو ستيته يشنق عليه، يعرف ما يدور بداخله، يحتضنه ويبكى:

- يا ريتنى ما قلتلك يا عم أبو الهوى.. دانت عرقان وسخن قوى.
- بتقول إيه يا حبيبى خد الحلاوة دى كلها.. خد خد.

يدور كمجنون ويبحث فى الليل العنيد والنجوم البعيدة وشمس نامت فى بيتها البعيد وطيور الليل الهائمة وتطوحات الشجر تحت أكف النسيم ولسعة البرد العابرة.

يود لو ينطلق الآن على حصان أبى زيد مخترقًا الحواجز والبحور والتلال والصعاب.

"ترى ما شكله، دفء حضنه، مساحة وجهه"

يتنطط كطفل، وأبو ستيته يود لو يحتوى اندفاعه وجنونه وحنينه، يحميه من كيد الأعادى وعين الحسود وفجأة الفرحة وشتات العقل، يهمس للجسد الجامح:

- خلاص يا عم أبو الهوى الفجر قرب.. نام.

***

الدوّار الذى أحس به فى بادئ الأمر لم يكن من السهر أو الجوزة أو الشاى الثقيل، القلب المضطرب تزداد دقاته ويثقل

كجبل. العينان مغلقتان بأعتى الصخور، القئ يتردد فى الحلق فيلعق مرارته فوق اللسان اليابس، البرد الذى اجتاحه لا تدفئه نار الدنيا وارتعاشة الجسد لا تثبتها الحبال المتينة.

ما أحس بذلك من قبل، حتى فى عز طوبة حين كان يتقلب فى الخلاء على بساط الندى وغطاء متهالك، ولا صيد السمك فى ليل الأربعينية وبرد يقطع ذيل الفأر، وهو يغطس ويغيب ويقب محملاً بالسمك ملء اليدين والفم.

ما الذى يصب الثلج على الجسد الهامد.

- سلامتك يا عم أبو الهوى.

تزداد الهمهمات والتأفف وتوارد الأفكار والأسماء والأماكن متشعبة ومضطربة، جمل لا تكتمل وكلام مهشم الحروف، وبين حضور وغياب ودهشة وصحو ويقظة ونوم وخمول وضوء شاحب واصفرار يعم الفراغ ونار تغلى فى الدماغ.. تقبض يده المرتعشة على أبى ستيته..

- أوع تمشى يا وله ولا تنادى حد.

يحتار أبو ستيته ويدور كثور هائج، يغطيه بالألحفة وأجولة البطاطا الفارغة، تهتز الأغطية ويزداد الارتجاف، فيغلى النعناع ويسقى الفم المرتعش حتى هدأ ونام.

الشمس غسلت أشجار البستان وأطلقت الطيور فى فضاء الله، فتقلب الجسد الهامد وراح يزيح برفق الألحفة وأجولة البطاطا الفارغة، يتلفت حيث أبو ستيته يغط فى شخيره ونومه العميق، فيتسلل ويتخطى الباب والنجع ويتجه إلى البندر.



طول الطريق.. الناس فى حال وهو فى حال، لم يغادر نفسه طوال المسافة، الحكايات من حوله تتناثروتتشعب عن القطن والقمح والبيع والشراء. يقوم وينكفئ فى حفر الذكريات والطرق والنار المتأججة تحت العمامة، يدرك أنه من النظرة الأولى التى مسح فيها وجه أبى ستيته، لمح سرًا مختبئا وراء لوعة العينين الزائغتين، لقد باح الولد بكل شئ، فذكر الناس والعزاء والحمير والرجل العجوز. حتى اللفت المخلل، يحلف بكل سوق ومشوار وقالب حلوى طحينية:

- يا عم أبو الهوى أكدب عليك ليه، قادر ربنا يخرسنى قال أنه ابن عمك لزم.

ولا يدرى لماذا فى هذه اللحظة بالذات يود لو يصدق هذا الولد بكل كيانه وبالشمس الساطعة على هذا البستان وهذا الذئب المعلق على الباب، أليس لكل واحد أهل، وهل أحد مقطوع من شجرة، وكاد يصدمه حنطور لولا أولاد الحلال الذين زاحوه فى آخر لحظة وجفل الحصان وتوالت لسعات كرباج العربجى وسياط شتائمه تتوالى فى الهواء والشوارع حتى اختفى.

الناس من حوله يمرقون كالأشباح، كثيرون، يبيعون ويشترون ويصلون ويسرقون، الكل فى النهاية يذهب إلى بيته وأهله وعياله، ولكن أنت ستظل هكذا معلقًا فى خيوط واهية، تجرى هنا وهناك لمجرد سماع خبر عن أحد يعرفك، وتجدد العهد مع المشاوير والطرق والأسئلة وسخرية الخلق، كلما تعلقت بخيط كمن يسير على حافة الماء، انفلت فى آخر لحظة وتركك وجحيم الأسئلة والحيرة وتلفيق الحكايا وقهقهات نفسك التى بين جنبيك، فلا أنت لاعب عصا، ولا أبوك باشا......

من أنت يا أبا الهوى.

- آه من الهوى.

- رايق يا عم.

ظن من اصطدم به أنه يغنى، فأفاق (أبوالهوى) وتلفت حوله وجلس على أقرب مقهى، وراحت الذكريات تطفو على السطح وتتصاعد مع بخار الشاى.

- الشاى برد يا أبو العم.

مرة أخرى ينتبه على صوت النادل وهو يتنطط بخفة بين المواد وكراسى الخوص، فيتخيله وهو يعود أيضًا فى نهاية اليوم إلى أهله.

آخر مرة زار فيها البندر كان الهجانة يسوقون الناس بكرابيجهم فيتفرقون مبتعدين فى الدروب، يحاذرون طرقعات تتوالى فى الفراغ، فينكفئون ويعتدلون ويسرعون، يتماوجون فى بحر من الصراخ، هو يخشى رجال الهجانة وكرابيجهم وعيونهم الضيقة ووجوههم المسودة الخالية من الشفقة، يعرف أنهم يتصيدون الغريب، ينحنون عليه من فوق الجمال بسيل الكرابيج، فتحاصر اللسعات المتلوية ظهر الهارب ويتقلب تحت أخفاف الجمال وتنخسه كعوب النعال، ثم يجرونه مهدلاً أمام انكسار العيون.

هُم أهل البندر يعرفون دروب المكان ومخابئه، وهو الغريب لا أهل له، ومن ذا الذى يأتى لاستلامه، الطوابون؟ تحت بكاء زوجته وتوسلاتها يأتى سعيد الطواب لافحًا عباءته شامخ الرأس متغطرسًا، سيعود به مسحوبًا بحبل الشماتة فى انتظاره من يحيطونه بالسخرية والهيصة وقراطيس التراب، إنه يحاول جاهدا أن يستبعد الفكرة كلية، إن أخشى ما يخشاه الحُمى التى تسلب البنى آدم عقله، وتجعله يعرى نفسه ويكشف مخزون أسراره الذى يغلق عليه ألف باب وباب، الأسرار الحقيقية التى يسترها حتى عن نفسه، وينسج من حولها الحكايا ويحشو بها الآذان كل ليلة فى المندرة، يضغط بعنف على كوب الشاى ويؤكد لنفسه بأنه كان موقنًا من يقظته وصحوه، وأن الذى كان معه هو أبو ستيته ستره

وغطاؤه، وأنه شرب براد نعناع وترك الولد نائمًا وتخطاه وجاء إلى هنا حيث الطبيب.

الآن فقط تذكر ما جاء من أجله، سأل النادل عن طبيب فأشار بإصبعه، تَسنّد (أبو الهوى) على عصاه وحواف الظلال واتجه صوب العيادة.

- سلامتك يا والدى.

مالِ الطبيب يتكئ على الجرح ويجرح القلب بآلاف المشارط، طعم المواويل يابس فى الحلق، وشجرة العمر قشرتها السنين والهموم وقلة الحيلة، وأين من يناديه بتلك الكلمة (يا والدى) يثب على قدميه بين الحشائش ويبص برأس يمامى ويشاكس الهداهد ويشد حرام الأم، يحيى فيه الروح الكسيحة ويرفعه فوق هامات الرجال، لو كان له ولد لجاء معه ها هنا وحمحم عليه فى زحام المارة والحناطير وعربات الكارو، يتسند عليه فى بحار الشوارع مطمئنًا لكتف صغير ينمو كطلع النخيل.

كم يود لو يسمعها من ابن حقيقى، تخرج عبر اندفاع الدم فى الشرايين وحنو الخلل على المعروق، وهفهفات أطراف الشيلان فى اندفاع الفارس بين المزارع، يد صغيرة تمتد فى صحراء العمر، يتعلق به ويطلب الحلوى ويتعلم لف العصا فى ليالى السامر، ويخط شهادة ميلاده على وجه خلاء يطارد الغرباء، ويحيى على ذكراه ليالى الذكر فى رحابة البستان، تأتيه فى رقدته ترانيم الذاكرين وصيحات المداحين ودعوات المساكين حين يمسحون أفواههم بأكمامهم الطويلة، وعيال يلتفون حول الطبلية يلقمون صدور الإوز وفيض الثمار ويتسمعون حكايات جدهم (أبو الهوى).

- يا والدى معاك حد.

- معاى ربنا.

- ونعم بالله — حاسس بايه.

يود المرتعش لو ينطلق داخل المعطف الأبيض، يتشمم عن قرب عطر الطبيب ويتحسس الصدر العريض ويدفن رأسه فى دفء الضلوع ويبكى بحرقة:

"بادوخ وقلبى بيهبط وأحس أنى فى حنك طير جارح واخدنى بعيد ينسر فى جسمى ويرمينى فى الخلا، باعرق وارتعش وبعديها ما أحسش بدنيا".

يد الطبيب الحنون تتحسس مواطن الجسد، كأنها تغوص داخل تلافيف الروح، تتشبث بها يد الغريق، يتحسس الشعرات النابتة فى ظهر الكف ودفء الأصابع ونعومة الجلد وتدفق الحياة، يسحب الطبيب يده برفق ويتأمل العينين الدامعتين، معبئتان بالهم، وشكوى لا يترجمها اللسان المرتعش، فيض من الحزن واللوعة تحت غلالة الدمع الشفيف..

- هبوط بسيط، محتاج ترتاح وبلاش انفعال.

وناوله بعض الأقراص الصفراء وسنده حتى استقام ومضى، وتابعه بحنو وشفقه ارتسمت على ملامح الوجه الشاب.

يتذكر المهموم كلمات الطبيب الودودة، يقلبها كفطير الرقاق على جميع الأوجه، ما الذى يضايقك يا رجل، أليس البيت الوسيع والبستان لك، والمرأة بنت الحسب والنسب تحتك، والكل يترقبون حكايتك التى ترشرشها عليهم كل مساء فى رحاب المندرة، ماذا تريد وما الذى يشغلك ويجعلك تغوص فى بركة من ماء آسن وخدر؟ وأنت صاحب الرأى والكلمة والمحفظة العامرة وسلال الخبز، تتخبط الأفكار وتتزاحم، ويجر جسده الكسيح فى فضاء الشوارع بين الزحام وعيون الناس وطرقعات الكرابيج على مؤخرات الأحصنة ودقات المطارق فوق أوانى النحاس ونداءات بائعى العرقسوس والبوظة وصياح العيال خلف رجل يلاعب قردًا وامرأة

تنتف شعر جارتها التى فضحتها أمام زوجها وتخبط على أفخاذ عارية، ضجيج يتلاحق وهو لا زال يبحث فى سكون عالمه عن أسباب وصوله إلى حالة كهذه، فتتلاحق الأفكار وتمر مسرعة وتتوقف دومًا عند انقطاع الحياة واحتضار الروح وترنح الجسد المتهدل على الفراش وسط عيون تبص ومناجل تستعد لحصد الثمار، وأياد تتشابك لتحيط بستانًا لا صاحب له ووصية تتوه تحت مطارق الفكر المتشتت وقلة الحيلة ورحيل الوحيد فى زحمة الناس، بلا ولد يمد يده ويأخذ العزاء، ويمنع الأرجل المتسلقة على حواف السور ويسند الباب ساعة الريح وعواء الذئاب والقدر العاجل، يتوقف ليدور مكانه كملسوع، يداه مفرودتان أمامه كالأعمى، ويلف وسط التزاحم الذى ترك كل شئ والتف حوله يتابع من يدور كمخبول فى زار تحت دق طبول خفية وساقية تدور، عينان مغمضتان مقفولتان على سؤال لن يستطيع أن يبوح به، ويبوح لمن، لزوجة عاقر يسوء حالها يومًا بعد يوم، انقطع الحيض وزاد النكد والعراك وسمع الناس هياجها الذى لا سبب له، تنظر إليه كمن لا تعرفه، وتحدق فيه بغيظ وهى تذبح الدجاجات على عتبة البيت، فيسمع السكين تشحذ على الجدران والروح تنسلخ من الجسد الحى، ويصم آذانه التى يثقبها استغاثة الدجاج تحت جز السكين الحامى، والطوابون يمرون ساعة العصر بلا سبب وقد دهنوا فوهات بنادقهم وعلقوها فى أكتافهم المخشبة وشربوا عنده الشاى الثقيل، واقتربوا أكثر من بنت عمهم، إذا كان ذلك يحدث أمامه فكيف وهو طيلة اليوم فى الأسواق، لا بد أنهم يأتون ويأخذون ويتحدثون ويتآمرون ويعدون العدة، هى تصبغ شعرها ولكن جذور الشعر يشعلها المشيب، ويتفجر الغضب فى وجهها الذى تكرمش تحت سياط العمر والشماته وغمزات حواجب نسوة الطوابين على امرأة لا طالت بلح الشام ولا عنب اليمن، ينتظرون وقوعه كذبيحة كى يدبون سكاكينهم الحادة فى اللحم الحى.

الهرج الذى تزايد حوله فرقته كرابيج الهجانة وهى تقترب، والأقدام تسرع من حوله مبتعدة، فقرر أن يتحامل على أحزانه ومرضه ويجرى قدر استطاعته مبتعدًا عن جحيم الكرابيج. على أول البلد كان أبو ستيته فى انتظاره تحت جميزة عوف، ما أن لمحه حتى أسرع إليه وأخذ بيده ومشى يعاتبه برفق:

- كنت قلى يا عم أبو الهوى أنت مستعارّ منى، دانا عندى جزمه جديدة.

يضحك (أبو الهوى) ويزيح عمامته على جبهته العريضة وهو يمر أمام دوار الطوبين، يتكئ على كتف أبى ستيته ويلف عصاه ويمضى دون أن يلقى السلام، فيعتدل الحاج على مصطبة الطوابين وسط الجالسين حوله، ويبص تجاه أبى الهوى ويصرخ فى ابن زكية العرجاء:

- قوم غير مية الجوزة يا واطى.

فيزداد (أبو الهوى) تخايلاً فى سيره، ويغمز أبو ستيته فيطلق ضحكة مجلجلة.

- الحمار انهد وما وصلناش يا وله؟

- خلاص يا عم أبو الهوى البلد اللى قدامنا دى.

عيناه المتلهفتان تتأملان البلد الغريب، يرقد تحت تلال البوص وانحناءات النخيل وأبراج الحمائم وفروع الأشجار المتشابكة، تتكفئ على أسراره وناسه وحوائطه الطينية والأكواخ وإوز الشوارع وطلمبات المياه.

أبو ستيته يجر الحمار من رقبته ويلقى السلام على كل من يقابله، فما زال حديث عهد بهذه الوجوه والشوارع وبقع الشمس والخرابات، وأبو الهوى يركب الحمار ويفرد صدره بشوق السنين

واهتداء الحائر مستسلمًا والحمار ليد أبى ستيته وهو يجوب بهما فى الدروب الملتوية، تطير الأخبار للعمدة عن غريبين يمران فى الشوارع، لحظات وعيون الخفراء تتلصص من خلف جذوع الأشجار ومؤخرات البهائم.

- خلاص هنا يا عم أبو الهوى.

الباب الهش يُفتح ويُغلق فى رتابة، والبنت الراكبة عليه كأرجوحة ينبثق شعرها الأكرت من فتحاته، وأبو ستيته ينادى:

- يا على.. يوه يا غريب. يا سعد.

فيندهش (أبو الهوى) من تعدد الأسماء ويزداد خفقان قلبه وشوقه لالتقاء الأحضان والدموع والذكريات والشكوى والحنين.

صاحبة الشعر المنفوش قفزت إلى بحر الشارع بصدر متهدل وملابس متمزقة. تعلقت برقبه أبى ستيته.

- هات قرش يا عم.. عريس جه، عريس جه.

تعرت المساطب والظلال من دفء من أسرعوا صوب الغريبين وتجمعوا فى حلقة تتكاثف وتتزايد وتعبئ فراغ المكان بأفواه مشروخة وقهقهات تتحلق فوق فروع الأشجار، فتجذب العابرين حيث هنا أمام هذا البيت والغريبين سيكون وقتًا مرحًا وفرجة بلاثمن، (أبو الهوى) يرسل ابتسامة من وجه مندهش.

ويخرج الرجل من تلافيف الظلام داخل البيت الضيق وينط فى ضوء الشارع ملبيًا من ينادى، متلذذًا لسماع أسماء متكرره تأتيه من ضجيج الشارع والتمام الناس "يا على.. يا غريب، يا سعد" فيميل على أمه العجوز ويضحكان، إذ تمتد خيوط بينهما وشارع يرون فيه الأقدام تمرق بسرعة مخلفة روائح عرق العابرين وآثار أقدام وأرواح تتلاصق بالداخل ملفوفة بفراغ باهت وصمت وذكريات تهشمت ومواعين تآكلت واسودت ورائحة خبز يحترق ودجاجات

ينخلن التراب عشرات المرات يحاذرن عصا المرأة التى تشوى المناقير المتحلفلة على طبق الخوص الفارغ والفتات وبقايا لقيمات سيقضى عليهن العشاء.

(أبو الهوى) يحاصر الرجل بعينين متفحصتين دامعتين ملتاعتين، كان الرجل بلا ملامح، يفوص أنفه فى شاربه، وعيناه تختبئان فى حواجب ثقيلة، وظهره انحنى تحت زكائب وهمية، كان متقوسًا لحد الانحناء، تظهر ياقته المتسخة وظهر جلباب تآكل فبدا كالحا. وأبو ستيته يؤكد من خلال غمزاته أنه وجد ضالته وأنه يستحق حلوى الدنيا كلها وأن العمر الذى قضاه فى خدمة (أبى الهوى) يأكل من خيره ويرتع فى عزه، ها هو يؤتى ثماره. فالرجل أمامه والبيت ووجوه تتابع وتلتف.

أبو ستيته يمد يده ليصافح الرجل، يد الرجل كانت أسرع إلى رقبة أبى ستيته وهو يصرخ فيه

- أنت مين؟

- سيب رقبتى، أنا أبو ستيته وده ابن عمك أبو الهوى.

- هيه ابن عمى جه، تعالى يا مه تعالى يا منجه ابن عمى جه ومعاه حمارة.

كان الشارع قد امتلأ بالضاحكين وتعلق الثلاثة بأبى الهوى يشدون عمامته وأكمامه وتدس البنت يدها فى جيبه وتتقافز:

- هيه لقيت قرش لقيت قرش.

ويدورون به بين الواقفين وحيرة أبى ستيته ويرددون:

- قريبنا جه ومعاه حماره، قريبنا جه ومعاه حماره.

الخفراء ينهرون الناس الملتفين ويشقون التزاحم ويخلصون (أبا الهوى) بمشقة من قبضة الأيادى والأظافر والأسنان ويسحبون الجميع لدوار العمدة.

على مسطبة امتدت بطول الجدار ورشرشت عليها شجرة اللبخ قروش الظل وغدل المكان فى الهسيس وكركرة الجوزة، يقعد العمدة على شلته ويتأمل التزاحم المقترب ويصيح فى الرجل وأمه:

- أنتم مش هتوبوا عن كده؟

ويفسح مكانا بجواره (لأبى الهوى) الذى يعدل من عمامته ويستر ما تمزق من جلبابه.

- أنا مش فاهم حاجة يا عمدة.

- أنا أفهمك.

ويحكى العمدة عن هؤلاء الثلاثة الذين جلسوا يبكون ويضحكون ويضربون بعضهم ويهشون كائنات وهمية ويفتحون أذرعهم لأشباح لا وجود لها ويعدون قروش الظل، والبنت تمد يدها لأقرب خفير بجوارها وتشد ذيل جلبابه:

- هات قرش يا عم مش أنت قريبى، ويشرح العمدة (لأبى الهوى) حكايتهم:

- دول يا عم.. إلا أنت اسمك إيه؟

- أبو الهوى.

فتموج الأجساد على بقعة الظل غارقة فى الضحك، وصوت أحد الخفراء ينطلق كالبارود..

- يا حلاوة على الهوى د الحكاية كملت.

فينهره العمدة من فم ضاحك ويكمل:

- فى يوم لقيناهم فى أول البلد قاعدين لابسين هدوم مقطعة لاحد يعرفهم ولا هم يعرفوا حد، حتى اسمهم م عارفينه، ودول ولايا، عطفنا عليهم وقعدناهم هنا، البيت اللى هم فيه بتاع العبد لله.

تنطلق أصوات الخفراء كجوقه:

- ربنا يخليك للغلابة يا عمدة.
- بس يا عم، كل ما يلاقوا حد غريب يجروا عليه ويمسكوا فيه ويقولوا قريبنا، واهى الدنيا مليانه بلاوى، عرفت الحكايا يا ابن أخويا.

ولم يكن (أبو الهوى) قادرًا على الرد فقد انطلق فى ضحك متواصل.

XXX

هيلا هيلا قومى   سايق عليكى النجوم[1].

صوت هذا الغريب يعم البرارى، ينطلق نديًا من بين الصفوف المتراصة، يخترق الدخان والزغاريد وعبق الحناء، ويمرق صوب القلب مباشرة، فتدارى فرحتها فى صدرها وتحكم اللجام على هيامها، فلا هى من أهل الفرح ولا هو، والليل المعبأ بالأشباح والأسرار والطلقات والتآمرات والحفر بحذر فى حوائط الزرائب ولحظات العشق المسروقة فى البيوت المهجورة وبين الأشجار، ودقات الطبول التى تشق لجج الظلام وتتسمع فى البلاد البعيدة، نداء يسوق الملثمين من أهل الهوى، فيخطفون الأحذية والعباءات، ويحكمون اللثام على وجوههم أثناء السير المتعجل، حيث دقات الطبول وخبطات الأكف ونداء أهل المكان عبر الليل:

- لما نوينا ع الفرح   لازم نصلى ع النبى[2].

تضمهم الجسور والأفراح، ويشقون الدروب مقتربين من ضوء الكلوبات، يقتحمون بقعة الضوء بوجوه ملثمة وأكتاف عريضة،

---

(1) من التراث الشعبى.

(2) من التراث الشعبى.

شباب يريد الزواج ومتزوجون لا يملأ أعينهم إلا التراب، سهام عيونهم تنطلق نحو كومة النساء حيث ترتفع الزغاريد، فيشتعل التصفيق ويمتلئ المكان بالبهجة.

- الأغراب هناك يا بو العم.

هكذا يوجه أهل المكان وفود الأغراب الملثمين فيسندون ظهورهم على الحائط المقابل وتتلاصق أكتافهم، الأيدى تفرك على بعضها وتستعد، والعيون تبص هناك حيث الغازلين والعطر الرخيص وعيون ملتاعة، فتنطلق العصافير فى صدور البنات وتكتسى الوجوه بحمرة الخجل.

تترقب الآذان بدء الكلام والرسائل والتلميحات المتفق عليها فى الأسواق ومكن الطحين وشوانى القطن وقطف العنب.

أصحاب الفرح يبتهجون كلما تزايد عدد الغرباء، فيروحون ويجيئون فى نشاط وانشغال، وتدور أكواب الشاى والسجائر، فيأخذ أهل البلد ويرفض الأغراب، يشعلون من سجائرهم وعيونهم متعلقة بالبنات، فينشرح صدر زوجة مأذون البلد وتدعو فى سرها "افرجها يا رب" صفان يتقابلان فى بحر الشارع، والمسافة بينهما باحة للرقص والبوح والفرجة، يلملم أصحاب الفرح فناجين الشاى الصفيح وينسلخون من المكان لبدء الليل وانطلاق السامر، تمسح الأكمام الطويلة الأفواه التى تلوك بقايا التفل والشوارب الكثة والنابتة، ويبدأ السؤال المعتاد من أهل المكان الذين يعلنون عن تواجدهم بتلاصق الأجساد وإيماءات العيون والاتفاق على الشيلة التى سيبدأون بها لو رفض الغرباء البدء، ويشمرون أكمامهم فيكشفون عن أكف كالمطارح وأذرع كفروع السنط ويرفعوا أيديهم وتتلاقى إشاراتهم:

- لما نوينا ع الفرح لازم نصلى ع النبى

لا نتول:

- عند بيت الزين قربنا هو خطب واحنا جبنا[1].

يعرفون أن ما سيقولونه مجاملة لصاحب الفرح، فأهل البلد ليسوا فى حاجة إلى تلميح لهؤلاء النسوة اللاتى تأكل أعينهن ملامح الغرباء المخفية خلف اللثام، ينتظرن الكلام الخارج من الأفواه، فهم طيلة النهار معهم فى البيت والغيط والشوارع والموارد، يحنظلون الوجوه وقسمات الأجساد وخبايا النفوس، فما يقولونه ليس إلا تحية لصاحب الفرح وأمنيات بدوام الفرح ومجئ الفرج.

أما الغرباء فكل كلمة يجب أن تكون فى موضعها كما اتفق عليها، لتحرك الساكن وتهدهد الروح وترطب القلب الذى تخطى الجسور وجاء إلى هنا، ما إن تنطلق كلمات من رجل ملثم حتى تنسلخ بنت من بين جمع النسوة تتحدى كل الأعراف والعصى والعمائم، وترقص أمام فارسها الملثم الذى دعاها بكلمات اتفق معها عليها فى مكان ما.

يلقى الغرباء بأعقاب السجائر ويفركون أيديهم وتتلاقى نظراتهم وأكتافهم وشوقهم للحظة التى ستنسى تعب النهار وقسوة الشمس وانحناء الظهر فى جحيم الغيطان، يصيحون قبل ذهاب الليل وفوات الفرصة:

- لا نشيل إحنا.

يد أبى الهوى تلوح لهم فيتركون له المجال ليبدأ، فيتنحنح ويستعد ويثنى رجله مستنداً على الحائط وتنطلق الإشارات من فمه متوافقة مع خبطات كفيه العريضين كقعقعة برق.

هيلا هيلا هيلا قومى سايق عليكى النجوم.

---

(1) من التراث الشعبى.

تلك كانت كلمات لمح بها للجالسة أمامه فى السوق، تغرز أصابع البطاطا على مهل وترمى بنظرة حانية إليه، فتتسلل كدغدغات يد طفل فى تجاويف روحه، يتأملها وقد تعلق بها ولدها الصغير ومد يده وخطف إصبع بطاطا.

- بس يا ولد تنقطع ايدك.
- سيبيه يا ست د عيل.
- ده من ساعة أبوه ما مات وهو مغلبنى.

فكأنما شاعر الربابة يتكئ على جزع الصفصاف ويحكى للخلاء همه، وكأنما فتحت له بابًا من الود وكفًا من عسل مصفى، إكتناز الصدر ووجه مفرود بحجم البراءة، ربما رددتها مرة أخرى لتؤكد خلو المريض من الفرس، والأرض جاهزة للزرع ندية وعفية، ربما كانت تقصد ذلك حين رأت اكتمال الرجولة والعقل والاتزان فى عمر هذا الرجل، تركت نفسها لعينيه المتجولتين فى رحابة بهجتها ووجه الصغير، وتاهت فى تقاطيع الرجولة المتفجرة فى ملامح الوجه والشارب المبروم.

- هو انتى منين؟

ومن بين تزاحم السوق وامتداد الأيدى بالشراء تنصب عيناه على الجسد الفائر والولد المتشبث بكتفيها يقضم بنهم فى إصبع البطاطا فيتدشدش بين أسنانه الصغيرة، يود لو يضمه إلى دفء صدره، يتابع العينين الصغيرتين والأسنان القاطعة والفم الذى يدلى ريالته بسخاوة على الجلباب المقلم، كان الصغير يتطرق فى عينيه أودية ومزارع بامتداد السوق والبستان، يستدير كخيمة ويظلل على عمره الذى تسرب وفلت وتكسر تحت سنابك الهموم ويد رقيقة تمتد كالفجر لتكحت الحزن عن وجه عابث وتكفكف الدمع المنهمر.

كان بحاجة إلى آم وولد يردفه خلفه على الحمار ويتسمع دقات قلبه تنغرس فى ظهره وتدفعه للأمام ويجلسه على قدميه ساعة مرور الناس، رأسان يمتدان فى الفراغ كمسلتين، ويختنه فى السيد البدوى ويورثه البستان وأرض المرأة العاقر ومندرة يحج إليها الساهرون، وكانت بحاجة إلى رجل كهذا الذى ينبثق شعره من فتحة الصديرى، ووجه صخرى يصد الأعادى ويعبئ ليل وحدتها بالمواويل والدفء والاحتواء، تلملم الأصابع وتدنو من جلباب الصوف تتشمم عرق الرجل، فينتفض جسدها الذى جافاه الدفء واللين والماء الذى يطرطش فى الطشت ساعة الفجر، وكوب النحاس حين يرن فى الأوانى فيشعل الشبق فى نسوة الجيران، والكحل الذى يخط على رموش العينين الواسعتين، والماء الذى تنوح منه رائحة الصابون حين تحمله الرأس ويختال به الجسد لتلقيه أمام النسوة المنحنيات على الموارد فترتفع الضحكات:

- كُبى بعيد يا أختى معانا هدوم.
- يوه يوه د حموم كده وكده.
- شوف البنت ومكرها، لما باين عليكى السهر يا آم كحلة.

وتجلجل الضحكات فوق الماء العابر والأسطح والأوانى المحروقة، فتهتز الأفخاذ على الموارد ويحلو الكلام.

عن بلدها أخبرته فعرف أن المريض خال والجو رائق والثمر فى انتظار الأكل على سنة الله ورسوله.

- فيه فرح عندكم قريب؟
- فرح صالح يوم الخميس.

خلاص أنا هاجى.

- تشرّف يا مرحبا.

تدور المواويل فى ذهنه. يبحث عن إشارة من موال يوجهها فى زحمة الفرح وتلاحم الغرباء وترقب العيون، فتتعرف عليه من بين الملثمين وترقص أمامه. هى فى انتظار الإشارة التى ستتلقاها بكل ما أوتيت من فرح وشوق وانتظار للحظة ينطلق فيها صوت الرجل إليها عبر الليل والتصفيق وغمزات النسوة:

- هيلا هيلا قومى.

فتردد فى فرح:

- سايق عليكى النجوم.

هذا هو النداء الذى اتفقا عليه ليكون الرسول بينهما فى زحمة الناس. ولامست الأصابع بعضها، فاستحال هدير السوق غناءً وفرحا. ومشت والولد يهتز فوق كتفها ويرمق السوق من عل، و(أبو الهوى) يأكل الولد بعينيه وهو يمضى مخترقًا الفضاء بوجه ضحوك.

عادت محملة بالحلوى العسلية والبطاطا والبرتقال، تنط فوق التراب كأبى فصادة، أحست بأنها تطير بالولد بين القنوات والطرق والغيطان تكبو فرحةً فى رحابة الكون، وبلدها البعيد يقترب، فهمست فى أذن جارتها:

- هو فاضل كام يوم ع الخميس يا أختى.

منذ الصباح وبنت الناس تدعك رجليها بالحمرة حتى استدارا كعبيها هلالين، تتحسس جسدها والفراش اللدن والولد الذى نام وإصبع البطاطا فى يده، وجلابيب المرحوم المعلقة على مسامير الحائط كأجساد مشنوقه، وصوت الفرح يأتيها عبر الدروب متسللاً من فتحات الدار والبوص، فتهب واقفة وتلملم على عجل ملابس المرحوم وتحشرها فى كيس تحت السرير، تحمل ابنها النعسان على كتفها وتمضى صوب الفرح.

النسوة عندما لمحنها خلعت السواد وجرت الكحل على عينيها

الواسعتين وفردت ابتسامتها كالظل فكشفت عن أسنان سليمة، تغامزن ومالت إحداهن عليها:

- المرحوم قطع بروحه.

فألقت ضحكة غسلت بها صدرها وانطلقت حمامتى عينيها الزائغتين تبحثان عن صاحب الصوت بين الملثمين وهو يتنامى عبر الكون كالمستجير.

هيلا هيلا هيلا قومى   سايق عليكى النجوم.

أكفٌ كأحجار الطواحين، وعمائم تتطوح على أجساد كالنخيل، وعصى تلف مخربشة فراغ المكان، وكلوبات يبدد ضوءها ظلام الليل، وظلال رؤوس تتأرجح على الجدران كالبطيخ، فيضحك العيال ويعدونها ويخطئون فيعاودون العد، وأبو ستيته بعد أن اطمأن على الحمار المربوط وأوصى عليه صاحب الفرح.. اندفع بين الصفين المتواجهين وطواحين الأكف والتطوحات، واندلق بضخامته وجلبابه المائل على صدره كالجمل الهائج والريح حين تهيل العشب، ودوامات الماء المندفع، والعريس الغشيم عندما يغلق عليه الباب، وعجل الطلوقة عندما ينزع الوتد ويرمح فى الدروب، وأهل البلد يضحكون، و(أبو الهوى) يدك نداؤه الليل والمكان، فتتسلت البنت من بين النساء وضوء الكلوبات والعيال وتندفع إلى ساحة الفرح، يتنطط قلب أبى الهوى بين الضلوع ويتجلى صوته وتميل عمامته وعرق الدنيا يصب عليه، حين تقترب كالغزال السارح، تتخطى الأكف والإشارات والتلميحات وغمزات الحواجب وخبطات الكف فوق المحافظ المتلئة وميل الأفواه اللاهثة على جسدها المتهادى والعيون المحملقة ولفح الأنفاس الدافئة، والنداء الذى أطلقه (أبو الهوى) حلا فى الحلوق وارتفع فى الفضاء وجلجل فى القرى، فاندفع الغرباء إلى ساحة الفرح وعلت الزغاريد.

والبنت غزال سارح بين البرارى، تميل وتعتدل وتكشف عن مناجم الذهب وتجليات القمر على وجه الخضرة، وجسد مهجور وهديل حمائم، حين تدك بقدميها الأرض يترجرج اللحم المكتنز وتطقطق العروق اليابسة وتحلق حمائم الصدر تحت الفستان الشفيف، ضفائر مجدولة كالليل، شعر أسود ناعم يلمع فى بقعة الضوء.

ومنذ أن دخلت بين الأكف وعيناها تبصان صوب مصدر الصوت، تحددان مكانه، لو كان الأمر بيدها لاتجهت إليه مباشرة، ولكن عيون الناس ينذب فيها الرصاص، ولن ترحمها تلك الألسن الحادة ستلتف عليها فى الصباح كالمشانق، ماذا يقولون عندما تتركهم وتتجه ناحية الأغراب مباشرة، كيف وهى الوحيدة العفيفة التى رفضت الرجال واعتكفت على تربية صغيرها، لا بد أن يبدو الأمر طبيعيا، ترقص وتمشى على مهل، توزع الجسد بالعدل على بصاتهم النهمة، وهم يتأملون هذا الجسد العفى الذى ما شافته العيون فى الأفراح من قبل، والرقص الذى يدهش العقول، تقترب الآن من حيث الإنتظار والدهشة وانذياح الروح فى الوجد، منديل التراب الذى تلاقت عليه نظرات الاثنين كان بوسع المدى وامتداد البساتين حد الشوف وفرحة الطير العائد إلى عشه ومركب يتهادى على صفحة الماء ويمضى إلى بلاد بعيدة، إنها البقعة التى استحالت جزيرة وكل ما حولها بحر، فالتصفيق بدا كأنه آت من عالم آخر ودنيا غير الدنيا، وهى تروح وتجئ أمامه، فتفسح له هو الغريب مكانًا فى القلب فيتكئ على عرش الحنان، تهدهده المواويل وتحتويه الحكايا، ويشد شاربه ولدًا شقيًا لعوبًا يجر عصاه على التراب خطوطا متشابكة ترسم بلادًا وزروعًا وتمحوها أقدامه المسرعة، ويسند معه جوال البطاطا على ظهر الحمار، ويردفه خلفه ويقتحم به الأسواق.

هى ترقص وهو يصفق والعيون تتساءل وإشارات أبو ستيته ترتفع:

- يا عم أبو الهوى الليل راح.

وما راح الليل على (أبى الهوى) وهو يتابع غزال البر، تلف وتدور أمامه، مهرة شاردة بلا خيال.

وبفيض الحنين، والشوق، وتعلق الغريق بقشة وتوهة الوحدانى، تطحن كتفاه الهواء فيشتعلان بالحمرة والصهد وتنتفخ العروق تحت الجلد. والحنجرة السالكة تدوى، فتميل بنت الناس بشوق السنين وخواء الفراش وقلة الأنيس وطلبات العيل وعيون تلتاع وصدر يتحجر وملابس مرحوم هرب منها الجسد وهجرتها الروح فالتصقت كأشباح على الحائط لا ترد عدوًا ولا تجلب رزقًا ولا تدفئ جسدًا، و(أبو الهوى) ذلك القادم من بحر الخلاء وانفلات العمر وقلة الحيلة، يلفح بأنفاسه الدافئة وجهها ويتشمم رائحة الصابون وفروة الجسد الراقص وترجرجات اللحم تحت الثوب الضيق، يخشى أن ينفلت منه الزمام فيطوق بكل ما أوتى من صحة ولهفة ذلك الجسد الهائج أو يحملها ويرقص بها وسط الناس، يحاذر وهو يكبت من لهفته ويحكم اللثام حول وجهه، حتى لا ينقلب الفرح نكدًا والأكف عصيًا والزغاريد ندبا، ألا يكفيه ما حدث فى الأفراح السابقة، لعلهم ما زالوا يبحثون عنه ويسألون صائدى الأسماك وضاربى الودع وبائعى الكرادين الملونة، يداه حين تصفقان تفتتان الهم وقسوة الأيام وتدهس بينهما كلمات سعيد الطواب التى تلاحقه (إيه حكايتك يا أبو الهوى)، فتدلق عليه دلاء الثلج والحيرة، فيصفق قدر قوته وغيظه.

وأبو ستيته يهمس فى أذنه:

- يا عم أبو الهوى الليل راح.

العيال همدوا ويئسوا من العد المتزايد وناموا فى حجور أمهاتهم، والليل صفا وتجلى السحر فى وجه القمر الذى وقف فى منتصف الدرب يبص من عل ويرشرش ضوءه الفضى على ليل السامر، والدم

يتدفق فى وجهها الأحمر.

- البنت فايرة يا أختى.

غمزات النسوة تتتابع وهن يحملقن فيها، فتهتز أجسادهن المتهدلة على إيقاع الأكف، وتطقطق عظامهن البالية، ويلمحن أزواجهن فى صف أهل البلد لا تزال عيونهم تلتهم الجسد الهائج، فيكتمن غيظهن وزغاريدهن.

- على الوا ا ا ا ا قف.

هكذا صاح (أبو الهوى) بين الغرباء، فسكت الضجيج، ووقف كل واحد فى مكانه. لحظة يتوقف فيها السامر استجابة لهذا النداء الذى سوف يتجلى بموال طويل يحكى فيه ما يحكى ويلمح ويبوح وينهمر الدمع سخيًا من وجوه أهل الهوى وأصحاب الكرب ومن مال عليهم الدهر، موال راضع من قلب النخيل والظل وزهور السيسبان وقسوة السنط ورقة الصفصاف، وما إن ينتهى حتى تنهمر الزغاريد.

والبنت تتكئ على عصا وتتخصر بأحد الشيلان، وتهتز كغصن يداعبه النسيم. فاستند (أبو الهوى) على كتف جاره وبدأ:

(طبيب يا جراح أنا سكن الألم جنبى.... من يوم فراق الحبايب مش لاقى حبيب جنبى.....)[1]

يوووووه

ما الذى دحرج المواويل والدمع والشكوى والألم وطول البعاد على شفتين ترتعشان، إن مواويله تأتى من الأزمنة البعيدة والحكايا المنسية، ودخان الأفران، ورائحة الخبز وعرائس العجين، وأحصنة الطين وأنات المريض على فرش الهنا حين يتقلب على حصير بال وصدر موجوع، وحنو الظل الممدود، وبلل الجدران،

---

(١) من التراث الشعبى.

وشمس الضحى، والتصاق الولد ردف أبيه حين تنبح الكلاب، وهمهمات صاحب الأرض بالمعوزتين حين تتدلى عناقيد العنب كصدور البنات، ورش الملح على رأس العروسين، والهمهمات، وحجاب يعلق على صدر الولد، وحربة تشرخ الريح وتدب فى عين الحسود، وبين قرب وبعد وصد وهجر ووعد وفرح وجرح مالح وسكين حامى يكوى موضع الألم، وهمهمة المحموم فى حضن الليل يحكى للشامتين أسراره، ومجئ الهلالى ساعة الجدب، وصرخة البدوى ساعة الحرب، وليلة الجمعة وعبق البخور، وبستان خيره للأعادى وجمل البين حين يطأ الظهر بأخفاف ثقال....

تتدفق المواويل وينهمر الدمع.

هى تهتز بلا ريح، تتسمع للشكوى وتتفهم حاجات الجسد الرجل، تود لو ترد عليه بهدهدات أمها فى الضحى وأحجيات الجدة فى رحابة الليل، وخدر الأيدى حين يدق عليهما الوشم، وغمزات البنات ليلة العرس وعجين الحناء وهززات أبواب المقاعد، واكتشاف نبقتى الصدر اليابستين ورأس العجل حين يطل من حيا الجاموسة، وحلم ليل وزرع وماء وطير أخضر يرفرف فوق شواشى النخيل.

تود لو تقول أو تحكى أو تصرخ، لقد فتحت آخر أبواب القلب، وهيأت النفس والمكان وعدة الشاى والإوزة المحمرة وجلست على حافة السرير بعد أن غط الولد فى نوم عميق، وشهقت لقدومه وهو يزيح الباب برفق وينزع ملابسه شيئًا شيئًا ويعلقها فى المسامير على جدار فارغ، فتدارى خجلها وفرحها وشبقها وخفقات قلبها ورفرفة الحمام بين ربوع الجسد، ولكن الموال قد انتهى وأعادت الأكف إيقاعها فى انتظار انداياح جسدها الراقص فى ساحة الفرح.

- هنا شوية يا أبو العم.

كان باقى الغرباء يرون الليل تتسرب ساعاته ولا زالوا فى انتظار انتهاء هذا الرجل من مواله ورقصته، حتى يبدأون دورهم فى

تلميحاتهم وإشاراتهم لغزلانهم اللاتى بدأن يرفعن رؤوسهن ويتلفتن بزيغ فى وجوه الملثمين. متلهفات لنداءات ستنطلق من صف الغرباء.

أهل البلد حتى الآن لم يقولوا شيئًا أيظلوا هكذا حتى الصباح، لا بد أن يردوا واجب الشاى الذى شربوه والسجائر التى داسوا أعقابها بأحذيتهم البلاستيك، والبنت تجاوزت الحد أمام هذا الغريب، فاشتعلت الصدور غيظًا واندفع أحدهم صائحا:

- على الواقف.

سكت الفرح واتجهت الأبصار والآذان صوب صف أهل البلد، حيث تنحنح (ابن العمشة) ومسح أنفه بكمه واتكأ على كتف أحدهم وردد:

وايش دخلك درينا يابو خلق دايب

تعشق بنات العرب وانت راجل شايب[1].

رددت الأصوات هذا الهتاف الساخر وغمزت الحواجب ودكت الأقدام فى الأرض، فلعق الغرباء غيظهم وكشروا عن أنيابهم تحت اللثام وغمز أحد الغرباء (أبا الهوى) فأمسك عصاه وقبض عليها بعنف، فمال عليه جاره وهمس فى أذنه:

- خلاص يابو العم دول شوية عيال.

كانت كومة النساء تتناقص، إذ يتسللن واحدة تلو الأخرى يحملن أولادهن الذين أغلقوا عيونهم على ضوء القمر وعد الأشباح ولقم الأثداء الضامرة، يسرعن إلى بيوتهن وعيونهن على الصناديق الخشبية حيث بالمراود يطمسن العيون بالكحل والوجوه اليابسة تتشرب الفازلين الرخيص، والأرجل تُدعك بالحجارة، وقمصان

---

(1) من التراث الشعبى.

الباهتة الكالحة تتهدل على صدور مترهلة . وينتظرن. فالغرباء مشوا بعيدا وفرقتهم الطرق والبلاد ، وهام أهل البلد فى ضحك متواصل على الهتاف الذى أطلقه ابن فتحية العمشاء قاذفًا به الغريب الملثم، فكأنما دلق عليه جرادل الماء ، وانسحبت البنت فى خجل، تتبعثر أصوات قباقيبهم كأخفاف الجمال بين الشوارع ويقتربون من أبوابهم المواربة.

البنت نامت... ما نامت.

البنت قامت... ما قامت.

لا أحد يحكى أو يزيد أو يعكر صفوها ، فقد اطمأنت على ولدها وراحت فى سهاد جميل.

أبو ستيته يحكى.. ما يحكى.

أبو ستيته يزيد ويعيد ، لا هو مل ولا (أبو الهوى) استمع، تمر الجسور والمصارف وكلاب السكك وأشجار كالأشباح، والحمار الماشى يتوقف لحظة عند نداء أبى الهوى:

- على الواقف يا ولا..

فيضحك أبو ستيته بين الليل والغيطان يتهدل جلبابه على صدره ويميل ويغمز (أبا الهوى) فى جنبه:

- سلامة عقلك يا عم أبو الهوى.



ما قالته العيون فى ليل السامر تحقق.

فها هو (أبو الهوى) يشق بحماره الدروب كاشفا اللثام عن وجهه الضاحك، يطوق بذراعيه سبتًا معبأ باللحم والبرتقال وقطعة الكستور الحريمى والصابون المعطر وجلباب للولد، وخلخال فضة وكردان ذهب، يتأمل شوارع الأمس والأرض التى داسها بالليل ووجوه أهل البلد الذين تراصوا فى السامر وشربوا الشاى ومضغوا التفل ولوحوا بالكلام. ومن بينهم (ابن العمشة) الذى فجر بكلماته الضحكات الساخرة وكاد أن يقلبها نكدًا حين قال:

وايش دخلك درينا يابو خلق دايب

تعشق بنات العرب وانت راجل شايب.

إنه فى النهار يبدو أكثر دمامة وقصرًا وبريشة وهو يبص بوقاحة صوب الركب المار، أبو ستيته يسحب الحمار، و(أبو الهوى) يعدل من عمامته وشاربه ويغطى ما انكشف من السبت الممتلئ، يدفعه الحنين والشوق إلى جسد الأمس وارتعاشة اليد الدافئة والأرض التى سيلجها بمحراثه ويلقى فيها بذورًا تنبت وتملأ الدنيا.

ومن صباح ربنا وهى على السطح، تراقب الشوارع من أعلى نقطة، تعرف العابرين من بعيد بجلابيبهم الكالحة، سنين وهى على الأجساد لا تتغير، وكأنها أسماؤهم سطرت بحجم الجسد، إلا أن لمحت الركب القادم يقترب من بيتها، ودت لو قفزت مرة واحدة من فوق سطح البوص، تهوى بسرعة قطة على سلم الصفصاف، توشك أن تطلق زغرودة فتوقظ المدى وتنبه الجيران وتستوقف النسوة بجرارهن وتشرئب الأعناق صوب الصوت ويندفع الناس من بيوت الأفران والأجران وزرائب البهائم والغيطان ويتجمعون أمام بيتها، تمتلئ الساحة بخلق الله كى يشاركونها فرحة تغمر الروح، ويمطرون المدى بالزغاريد والتحايا للبنت التى عرفت كيف تختار رجلاً كهذا ملء العين والجيب، ولكنها تدارى فرحتها وتحكم

اللجام على عقل يكاد يقفز بها فى بحر الشارع لتفتح ذراعيها ملء الكون وتأخذ القادم فى حضن من ورد وشوق ولهفة. توارب الباب وتوسع الولد تقبيلاً وضمًا ومسحًا على الرأس، وتخفى آثار ملابس للمرحوم تظهر من تحت السرير، وترشرش البيت بالماء، وتفرد حصير الخوص، وتمسح الطيور بنظرة سريعة وتتخير ديكًا كبيرًا مشاكسًا يخيف الولد وينقر الطيور والعِرَس.

إنها فى هذه اللحظة تريد أن تبوح بمخزون فرحها. ولكنها تدارى على شمعتها وتعبق البيت بالبخور والتعاويذ.

والباب الموارب انفتح على آخره، ونزل السَبَتْ، وانطلق الحمار إلى الحوش يقمقم فى عشب يابس، ولج (أبو الهوى) وصاحبه إلى حيث رطوبة المكان، ضمتهم الحصير والحكايا وجلس أبو ستيته يلاعب الولد ويجعله يضع يديه على الحصير:

(حديرى بديرى مناقش طيرى حدَرتْ بدَرتْ يا شرشير يابن الشرشير اخلع نبوت من فرع التوت واضرب سعده لما تموت حنقل بنقل دى اللى تشيل ودى اللى تنقل)[1]

- أه ارفع ايدك دى.

فيرفع الصغير يده ويخبئها فى حجره، فيمتلئ المكان بالضحك المتواصل، عندما همت بالخروج نادى عليها:

- تعالى كل حاجة هنا فى السَبَتْ.

ولكنها خرجت إلى الشارع، وراح ينظر إلى الجدار والغربال المعلق على الحائط وجمل البوص الذى ركنه الولد فى زاوية، لحظات وانفتح الباب عن آخره:

- أدخل يا عم عبد الغنى، يا حاج رشاد، يا أم محمد، يا...

---

(1) لعبة أطفال من الترا ث.

والحصيرة تمتلئ والوجوه تحدق فى الغريب. وهى واقفة ببهجتها وحضورها توجه الكلام بصوت عال لا يخلو من الحنين:

- الشرع غازى يا (أبو الهوى)، أنا مليش أهل ولكن دول أهلى وجيرانى، يا جماعة الراجل ده طالبنى فى الحلال.

- ونِعْمَ الرجال، فين صيغة بنتنا؟

فرحتْ وتشملتْ وهو يمد يده فى جيب الصيديرى ويخرج كردان الذهب وخلخال الفضة، تتناوب العيون المندهشة التلفت فيه وتثنى على الرجل ومقدرته، ومن بين زحمة الوجوه والضوء الشحيح والجدران الواطئة تطلق زغرودة عبر النخيل وأبراج الحمائم، فتعتدل زوجة المأذون هناك وتغمز زوجها:

- والله وربك فرجها.

من لم يسمع سمع ومن لم يعرف عرف، فالشارع امتلأ عن أخره، وجاء المأذون وتراصت الصفوف فى عز النهار على الحوائط ودقت الأكف، واللاتى جاملتهن تركن الخَبيز والعجين والمواعين وجئن على عجل يرقصن فى بحر الشارع.

أبو ستيته الذى احتضن (أبا الهوى) وبكى من شدة الفرح، ركب الحمار وعاد إلى النجع، يفرد ظهره ويختال ويتأمل الأماكن التى كان يقف فيها صاحبه بالحمار ويصيح:

- على الواقف يا وله فتجلجل الضحكات فى الليل

فبرغم ركوبه الحمار الملجم، إلا أنه يحس بوحشة ووهن وقلة وانقطاع وهو يترك رفيقه هناك ويعود ليواجه المكان من غيره، والمرأة التى ستسأله كل مرة عن صاحب الحمار، سيخبرها كما أوصاه:

- قلها فى مشوار عند واحد صاحبه.

فتعض على غيظها وتتمتم:

- ومن ميته بقيله أصحاب المقطوع ده..

- يوه لما الولد ياكل البطاطا وينام.

أكل الولد البطاطا ونام.

ما قاله جسدها بالأمس فى ليل السامر لم يكن كافيا، فها هو يتجلى كالقمر عندما وقف فى منتصف الدرب، ويعلن عن أرض صالحة للزراعة خالية من الحشائش والأعشاب الشيطانية، طاهرة كشجرة النبق، وعلى الذى دبت فيه روح الوصال وعنفوان المشتاق أن يزرع بلا تردد.

تتعدد المشاوير ويواجه أبو ستيته الأسئلة المحيرة، فيجيب كما أوصاه صاحبه، ينفذ صبرها وتلعن الأيام السوداء وأولاد الأرامل وتصوب سهام كلامها الحاد إليه:

- يعنى يا ولد يا أبو ستيته بحورك غويطة.

- ليه؟

- مش هتقول أبو الهوى بيروح فين.

تعلم بأنها لو قدمت الدنيا على طبق من ذهب لأبى ستيته لن يكشف سر صاحبه، فقط هى تلفت انتباهه إلى أنها صاحية وواعية وليست نائمة على أذنيها وتعرف أين يضع القرد ولده، وأنه مهما لف ودار ستعرف أين يذهب.

- أما أنت يا أبو ستيته حسابك معاى عسير.

فيرمح كجمل هائج ويختفى خلف الجدار، فتمسك بعنف دجاجة مارقة وتجز رقبتها فى غيظ.



ابن زكية العرجاء لا يحب البرتقال (الزاعق)، تقشر وتحشر فى فمه الواسع فيلوكه ويبصقه، فتملأ له جيبه بالبرتقال السكرى وتسأله عن أخبار الحاج والطوابين، فيحكى لها بصوت خشن عن زوجة سعيد الطواب التى شدها من شعرها وفرج عليها الخلق فدست له السم فى صدر الدجاجة وكان سيموت، لولا أدركوه يتلوى بجوار البئر. ونظر الحاج الذى يوشك أن يذهب إلى الأبد، طول النهار يحملق فى الفضاء ويهش أشباحًا وهمية ويحكى فى الذى فات وينادى أسماءً ماتت منذ زمن (ومنهم أبوكى الله يرحمه)، أما الحاجة فهى تكسح فى التراب بجسد أشل، لا تكف عن البكاء وطلب الرحمة من الأحياء والأموات والدعاء بالتعجيل بالموت لترتاح من سخرية النسوة وقنابل التراب المنطلقة من أيدى العيال والشماتة التى تجز فى روحها بسكاكين حادة، وحكى لها عن حجرتها التى استوطنتها الفئران وقضت على القطن وبقايا ملابس المرحوم، والبئر الذى جفت مياهه ونضب، ودقوا طلمبة بجواره، فتبكى بلا حرج أمام ابن زكية الذى أصبح رجلاً وبدا الانحناء يتسلل إلى ظهره وترسل معه السلامات والدموع والتوسل بطلب السماح. وتذكرهم بأن الظفر لا يخرج من اللحم.

فيطير محملاً بالأخبار منتفخ الجيوب، ويرشف من الخدود الناعمة، فتكتمل دائرة النسوة تحت شجرة الكافور فى مدخل الدار، وتخفق القلوب، تتلمظ الأفواه وتتشوق البطون الجوعى لعز قديم وكنز سينفتح، وأفران يرتفع دخانها، وإوز مذبوح، يستمع الحاج الكلمات فيستعيد وعيه ونظره، وتتململ الحاجة وتنضم إلى جمع النسوة اللاتى يفسحن مكانًا لجسدها الكسيح، ويلفح سعيد الطواب عباءته ويحمل سلاحه ويمضى مع الطوابين إلى بنت عمهم، يأكلون الدجاجة التى استوت، وتقترب الأفواه من الآذان، وتعمر البنادق بالطلقات المهيأة للانطلاق.



ابو ستيته اختفى، لا يعرف أحد اين ذهب.

فنفرغت شوانى القطن من الغناء والمواويل والكلوبات، ومر موسم القطن حزينًا وتراصت قوالب الطحينية على رفوف الدكاكين لا تجد من يأكلها.

غاب أبو ستيته إلى الأبد فبكى (أبو الهوى) وضحك سعيد الطواب وأصر أن يعمر الجوزة هذه المرة من معسله المخصوص وأن يعمل الشاى بيده. فاعتذر (أبو الهوى) عن تكملة الليلة متعللاً بالنوم، فدلق سعيد الطواب البراد بعيدًا حتى لا يشرب منه الرجال فيموتوا.

البطن الذى تمدد أمامه كانطباق أطراف السماء على الأرض، نطق عن ولد وزغرودة داية ووعاء سخينة، وامتداد حياة، كان يريده أن يسبق العمر وينمو كالنخلة، يتابع حركات يديه الصغيرتين ويدقق فى عينيه، كان يشبهه لحد الدهشة، وإذ يحبو يحبو مثله، فيضحك أخوه من أمه، وتلقم الأم صدور الدجاج والثمار الصابحة، فى الليلة التى يبيتها عندها يظل يحمله حتى الصباح، يقربه من مصباح الجاز ويغنى له ويحكى ويتنطط به، فتهمس له:

- وأنا مليش نصيب.

فيختفى ضوء المصباح وتعلو الضحكات المكتومة.

خطوات يخطوها الطفل على حصير الهيش وبساط الروح ونظرات (أبى الهوى) الخائفة وذراعاه الممدودتان بشوق ولهفة وألف ضمة، يغيب الولد داخل الصدر ويخرج بمحفظة النقود ويلعب بالسلسلة الكبيرة والجنيهات الخضراء، فيكبش حفنة قروش ويعطيها لولد كبير يبص:

- خد هات حلاوة.
- د كتير يا أبو الهوى.
- الاتنين فى غلاوة بعض.

ابن زكية العرجاء يتتبع موضع أقدام الحمار، يقوم وينكفئ ويتلصص من خلف النخيل وأعشاب الجسور وجدران البلاد إلى أن يربط (أبو الهوى) حماره ويدخل أحد البيوت فيعود مسرعًا إلى الآذان المنتظرة.

حين يعود (أبو الهوى) يجد المندرة قد امتلأت بالطوابين يأكلون ويشربون وتعلوا أصواتهم بالفخر الكاذب والعز البائد وقد رصوا أسلحتهم بجوارهم، وهى بينهم تذكرهم ما ينسون من حكايا الصبا وأيام العز التى يجب أن تعود ليعرف كل واحد حدوده، وتشاركهم الضحك المتواصل، فيلقى عليهم السلام، يردون وهم متكئون.

ليالى الحُمى تعاود (أبا الهوى) فيرتعش فى سريره ويلتف بالأغطية أمام زوجته بدور، تتشابك الأفكار وتضطرب ويفلت منه زمام العقل فيرغى ويزيد ويعيد ويخرج من بئر أسراره أسماءً وأحداثًا وذكريات كان يغلق عليها ألف باب.

وعندما يفيق يطلب ماء ليرد به ذلك الصهد الذى يأكل الأمعاء ويذيب المخ، فتسحقه من بعيد بعينين ناريتين وتشير:

- الكوباية عندك اطفح.

فـى الظهيرة وتحت شجرة البرتقال ذكرته بأيام الزواج الأولى والسوق والبطاطا ومعاداة الأهل وحمل الهيش على الظهر حتى انحنى، وغرس الأشجار وانتظار نموها شيئًا فشيئا والعشرة التى لا تهون إلا على قليل الأصل.

فانتظر السؤال الذى لا بد أن يجيب عليه.

- أنت اتجوزت علىّ يا أبو الهوى؟

أى شئ فى هذه الحياة يخشى عليه، أبو ستيته راح فى غمضة عين لا وِلد ولا أهل.

- وافترضى اتجوزت؟

- دانا أقتلك وأشرب من دمك.

كانت المسافة بينهما على الحصير قد امتدت إلى مالا نهاية، وتهلهل الظل الودود وحام غراب البين وحط على النخلة الذكر، واستعاد الذئب المعلق على الباب وعيه ودبت الحياة فى مخالبه وأنيابه وعوى، فجاوبته ذئاب الصحارى والحدادى وتطوحات العصى فى الأسواق، وسرح الحمار بعيدًا فامتطاه العيال وجروه إلى النهر، واعتدل سعيد الطواب هناك فى المندرة وتحسس مسدسه العامر، وتراءت له على البعد يد الهانم تشير إلى رجل أسود وطفل وتصيح:

- أهو عندك كله.

وتهيل التراب بسيارتها فيمحو الغفار ملامح الوجوه، والرجل وأمه حين تعلقا به وفرجوا عليه الناس، وعودته وحيدًا بعد أن دفن العم عبده فى مقابر الصدقه، وصوت أبى ستيته حين يخترق العمائم والزغاريد ويأتيه:

- يا عم أبو الهوى الليل راح.

تهجم الحُمى عليه بأنياب ومخالب تتماوج وتدور بالجسد، ويتردد القئ فى الحلق مُرًا كالصبار، فيغلى النافوخ الساخن،

وتدوخ الروح الكسيحة. ورجل تكوّم بعد ضربة عصا فى جنبه وأصابع تشير فى الظلام (جرى من هنا.. جرى من هنا).

كلما زحف على الحصير مستجيرًا بها لتحميه وتدثره وتصب عليه الماء البارد والأحجيات، ابتعدت نافرة ووجهت السؤال للوجه الملتهب بالحمرة:

- وخلفت؟

- .. معايا ولد.

كان الليل يدهن المدى بالسواد، والطيور تتخبط فى لجج الظلام، ورأى من خلال الضوء الشحيح عيون الطوابين تستعد لتحاصره، فبعثر الأشياء تحت السرير وأخرج حذاءه القديم وأسرع خارجا.

***

كانت قد انتهت إلى دوار الطوابين، شراشيب حرامها الأسود تلامس تراب الجسر، وعيناها متعلقتان ببرج الحمام الذى تهشم، كانت من هنا تطلق حماماتها فى رحاب الشفق وكان المدى نديا، سقط الجدار الخلفى وشاخت شجرة الصفصاف، تخطت العتبة وارتمت فى أحضان النسوة، تشهق بحرقة القلب وضياع العمر، البئر نضب والطلمبة التى وصفها لها ابن زكية العرجاء، عبق البيت القديم وأركانه ورائحة الدخان والخبز المحروق، والإسطبل الفارغ من الخيول، ومرابض الجمال، حجرتها والطلاء المتساقط ونتف ملابس تلملمها على عجل وتتشمم رائحة الأحبة، تدسها فى صدرها بجوار القلب، الدولاب القديم والطلاء المتساقط والبراويز المتهشمة وعروق سُلتت بالليل فبان فراغها فى سقف يتأرجح، والحاج لا يخلو من هيبة قديمة وجبين ناصع وعينين سوداوين يتسعان فى حيرة ويجولان مطفأتين فى فراغ أبدى، دموع الحاجه سخية، وذراعاها المتهدلان يتسعان قدر استطاعتها فى استقبالها.

تدنو من العجوزين، تقبل الرؤوس والأيدى، وتعلو نهنهاتها من صدر ينن، أشعلت ببكائها الأحاسيس، فامتلأت مندرة الطوابين بشباب نبت كالنخل وتحلو بشموخ الجدود والنظرات الساحقة والعصى، وسعيد الطواب يفتل شاربه ويغلى من الغيظ كلما علت شهقاتها وهى تحكى، فغمز لشباب الطوابين المتحمسين فارتفعت مسدساتهم وانطلقوا صوب الغريب.

لقد ضم ولده وأسرع به فى عتمة الليل، واختفى من ورائه صوت الأم المستجيرة، فانكفأت علىحزنها ودهشتها وعادت تخشخش خلخالها ويهتز كردانها على صدرها المكتنز، تجر ولدها الثانى وتدخل بيتها على مهل، محاذرة عيون المارة، تلتف بالضوء الشحيح وتتحسس موضع ابن هرب به الغريب.

أهو يجرى أم يقفز، ما للكون يضيق هكذا، والخلاء يفتح فمه من جديد، قنوات تلك أم أخاديد، جسور أم أسوار وجدر، يُلهب الولد تقبيلا، يجرى بخوف الطريد واضطراب القلب وغياب الرشد وأقدام تلاحقه، آه لو ينفتح الصدر فيحتويه، ما للبلاد تباعدت، يود لو يعبئه الآن بدفء المواويل، يعلمه لعب العصا واقتحام الأسواق وغرس الأشجار، يرفع القدمين بثقل، الحذاء يكبل القدمين كصخرتين، يتخلص منه وينطلق، لحظات يتوقف خلف أقرب صفصافة، كانت تحادث الليل بأوراق تهتز، وكأنه يسمع حكايات الأشجار، يدنو من عينى الطفل، يلمعان ببريق كأنه السحر، يغنى له ببكاء وخوف ولهفة:

كشفت حليمة على خد النبى نور فرحوا الصحابة وقالوا جمعنا نور

لك جوز عيون سود جل الذى صور لولا وجود النبى ما كان القمر نور.

الوقت يمر والظلام جدار أسود، يمرق به بين أعواد الذرة، تتبدر حوله الطلقات. فيغرس الولد فى تجاويف صدره، يتلفت مستجيرًا بفراغ سرمدى وخلاء لا يُصادق، يلمح من خلال قشرة الدمع شبح رجل يلف طنبوره ويسقى زرعه فى صمت، يدنو فى لهفة وحذر، يشير للرجل بالصمت فيرتجف، يهمس:

- يا أخى إن كنت مسلم أو نصرانى الولد ده أمانة فى رقبتك ليوم الدين، وديه نجع الطوابين وقول لهم ده ابن أبو الهوى.

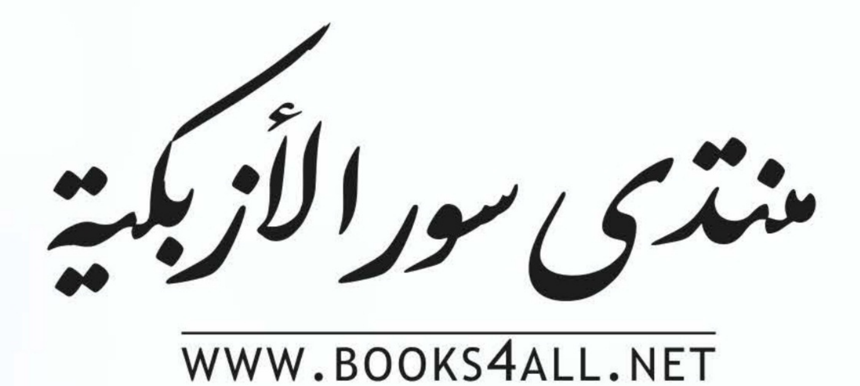
إنها اللحظة الأخيرة التى يفارق فيها تلكما العينين والوجه البرئ تتسع نظرات الصغير وشهقات الأب وارتعاشة الأيدى، يتحسس خفقان القلب ودفء الأنفاس والروح الحقيقية التى تملأ الجسد الصغير وتخط شهادة الميلاد على وجه الخلاء، امتداد الحياة وانسياب المياه فى الأرض العطشى، تأوهاته تخرج من عمق الروح ممطوطة وحزينة، حين يُقَدّم إليه الطفل كأن النخيل والليل والكون يشهد وهو يدفعه دفعًا إلى الذراعين المفتوحتين، يريد أن يغرسه فى عمق الواقف أمامه ليدفئه من برد الشتاء وخناجر الخلاء والذئاب وعيال الجن. يدفعه إليه كأنما يؤكد تمام استلامه والتحام الجسدين، الطلقات تتنامى وتنطلق كعصافير نارية من جوانب الخلاء.

فاحتضن الغريب الجسد الصغير، وغاب (أبو الهوى) بين شواشى الذرة وسواد الليل واحمرار الطلقات الطائشة والتى سرعان ما حددت مكانه.

يمضى الغريب منكفئًا على الطفل كعلامة استفهام، يخوض به بحور الظلام، وصوت (أبى الهوى) يجلجل فى أعماقه:

- يا أخى أن كنت مسلم أو نصرانى الولد ده أمانه فى رقبتك ليوم الدين.

تمت



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET